أسس التربية الإسلامية
من خلال سورة لقمان

أسس التربية الإسلامية
من خلال سورة لقمان

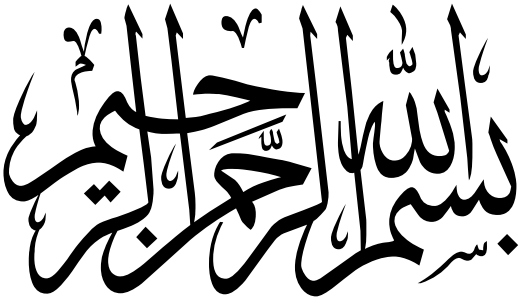

استهلال

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرّ الميامين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فتعتبر الأسرة هي النواة الأولى لبناء المجتمع، إن صلح أفرادها صلح المجتمع وإن فسدوا فسد، ويعتبر الأولاد ـ أطفال اليوم رجال المستقبل ـ هم الذين ينهضون بالأمة، أو العكس؛ لذا وجب الاهتمام بهم وتربيتهم تربية سليمة، وإعدادهم إعداداً جيداً يؤهلهم لحمل الأمانة، فجادت العقول بالفِكَر، وسالت الأقلام بالحبر تأليفاً، فظهر على الساحة الكثير من المختصين في تربية الأبناء، وزخرت المكتبات بالكتب والمؤلفات في فنون التربية للأولاد ممتلئة بالفِكَر والنظريات، إلا أنها ليست عامة وشاملة لكل زمان ومكان.

وللوصول إلى نظريات وفِكَرٍ عامة وشاملة ونافعة على مرّ الأماكن والأزمان لا يسعنا إلا العودة واللجوء إلى القرآن الكريم، دستور حياتنا الذي إن تمسكنا به لن نضيع ولن نخيب أبداً، والذي أعطى أهمية كبرى للأخلاق والتربية.

ولعل وصايا لقمان الحكيم الواردة في سورة لقمان تعد منهجاً متكاملاً لتربية الأبناء، كونها صادرة عن رجل صالح حكيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، نابعة من قلب محب مشفق على ولده، ناصح له، أساسها الصدق والقناعة والتجربة والمعرفة. من هذا المنطلق جاء إعدادي لهذه الدراسة المتواضعة بعنوان **(أسس تربية الأبناء)** من خلال سورة لقمان ـ دراسة موضوعية؛ إذ يمكن تحديد المشكلة الرئيسية كالتالي:

ما أسس تربية الأبناء من خلال سورة لقمان؟

ويتفرع عنها الأسئلة الفرعية التالية:

ـ من هو لقمان الحكيم؟

ـ ما الوصايا التي أوصى بها ابنه؟

ـ ما هي جوانب التربية الإسلامية التي يمكن الخروج بها من خلال هذه الوصايا؟

ـ ما هي القيم التربوية المستفادة من خلالها؟

وتعود أسباب اختيارنا لهذه الدراسة إلى حبنا الشديد للأطفال، واهتمامنا الشخصي بهذا الموضوع، وهو تربية الأولاد بطريقة إسلامية. إضافة إلى انتشار الكثير من الأخطاء في تربية الأبناء، والاقتصار على الجانب المادي؛ ما أدى إلى انتشار ظاهرة الانحلال الأخلاقي داخل المجتمع، وكثرة عقوق الأبناء لآبائهم.

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى الوصول إلى أسس التربية الصحيحة للأبناء، والتي تساعد الآباء وأولياء الأمور والمعلمين وكل من له اهتمام بمجال التربية على تربية النشء، وإعداد جيل مسلم حقيقي، فتعدّ مرجعاً لكل من يحمل على عاتقه تربية إسلامية صحيحة.

وقد كانت دراستنا موضوعية ضمن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، اعتمدنا على المنهج التحليلي الاستنباطي، حيث قمنا في البداية بقراءة الآيات الكريمة من كتاب الله ﷻ المتضمنة للوصايا المراد دراستها، ثم استخدمنا كتب التفسير لمعرفة تفسير الآيات، وقد استعنَّا بأكبر عدد ممكن من تفاسير أهل السنة والجماعة التي أتيح الاطلاع عليها، ثم باستنباط جوانب التربية من

خلال الوصايا، والوصول إلى تحديد أسس التربية الإسلامية من خلال تلك الوصايا.

وأخيراً وليس آخراً، أسال الله ﷻ أن نكون قد وفقنا فيما عرضناه، ونسأله العفو إن نسينا أو أخطأنا، فهو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد خاتم النبيين.

❋❋❋

الفصل الأول

الباب الأول:

أولاً: تعريف عام بسورة لقمان.

ثانياً: لقمان الحكيم.

ثالثاً: لقمان الحكيم، نبياً أم حكيماً.

رابعاً: حكمة لقمان.

الباب الثاني: **وصايا لقمان لابنه الواردة في سورة لقمان.**

الباب الأول

أولاً: تعريف عام بسورة لقمان:

هذه السورة المباركة هي السورة الإحدى والثلاثون بترتيب المصحف الشريف، ومجموع آياتها أربع وثلاثون آية[1].

ومجموع كلماتها خمسمئة وثمان وأربعون كلمة، وعدد حروفها ألفان ومئة وعشر أحرف[2]، وهي من السور المكية عند قتادة[3] إلا آيتين نزلتا في المدينة، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ [الآية: ٢٧] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الآية: ٢٨].

وعند ابن عباس إلا ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الآيات: ٢٧ ـ ٢٩] وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن قريشاً سألت النبي ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، أي سألوه سؤال تعنت واختبار، فنزلت السورة لبيان معجزة القرآن في معرفة أخبار الأمم السابقة وأخبار الأنبياء عليهم السلام، التي كان اليهود يعلمون بها من خلال التوراة.

سبب تسمية هذه السورة المباركة بسورة لقمان: سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛ لأن فيها ذكر لقمان الحكيم، الذي أدرك جوهر الحكمة بمعرفة

---

(١) الكشاف: ٤٨٩١٣، وتفسير البيضاوي: ١١٤/٢٥.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل: ٤٠٨٣/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٥٠/١٤.

وحدانية الله ﷻ وعبادته عبادة خالصة لوجهه الكريم، والأمر بفضائل الأخلاق والآداب، والنهي عن القبائح والمنكرات، وهي خير مثال على تربية الأب لابنه.

وليس لهذه السورة اسم غير هذا الاسم، وبهذا عرفت بين القراء والمفسرين[١].

ثانياً: لقمان الحكيم:

لقمان اسم علم مادته مادة عربية، مشتق من اللقم، والأظهر أن العرب عرّبوه بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم، كما عربوا «شاول» باسم «طالوت»[٢].

هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح وهو آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وقيل: ابن إختايوب، وقيل: إنه ابن خالته[٣].

أما صفاته الخلقية: فقد «كان لقمان من أخير الناس، صالحاً، حكيماً، فطيناً، رقيق القلب، صادق الحديث، صاحب أمانة وعفّة وعقل وإصابة في القول، كان رجلاً سكيتاً طويل التفكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق ولا يتنخم، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه. وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا، فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي»[٤].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: ٨٦/٢١، والتفسير المنير: ١٢٤/٢١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر: ج٢١، ص١٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٦، ص٤٦٧، ٢٠٠٦.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي: ج١١، ص٦٢٤.

أما مكانه: فقد قيل: من النوبة، وقيل: من الحبشة[١]، وقيل من سودان مصر[٢].

قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: «كان لقمان عبداً حبشياً»، أما سعيد بن المسيب رضي الله عنه فذكر عنه: «كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر»[٣].

أما صفاته الخَلقية: أكثر الروايات تؤكد بأنه كان أسود اللون، غليظ الشفتين، ذا مشافر (أي: عظيم الشفتين)، مصفح القدمين (أي: عريضهما)، مشقق الرجلين، قصير القامة، أفطس[٤].

أما مهنته: فقد اختلف في صناعته، فقيل: كان خياطاً، وقيل: كان نجاراً، وقيل: كان راعياً، وقيل: إنه كان قاضياً على بني إسرائيل[٥].

ثالثاً: لقمان الحكيم، نبياً أم حكيماً:

اختلف السلف في كونه نبياً أم حكيماً، وانقسموا إلى قولين:

القول الأول: أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة، وعلى هذا اتفق جمهور أهل التأويل، أنه كان ولياً ولم يكن نبياً.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٣٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ج٢١، ص١٤٩.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي: ج١٨، ص٥٤٨.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي: ج١١، ص٦٢٤.

(٥) تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون: ج٧، ص١٨١.

القول الثاني: أنه كان نبياً، وقال بنبوَّته عكرمة والشعبي، وعلى هذا تكون الحكمة هي النبوة.

القول الصائب: أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى، وهي الصواب في المعتقدات، والفقه في الدين، والعقل[1].

وقيل: الحكمة هي العقل والفهم والفطنة في غير نبوة، وهي العلم المؤيد بالعمل، والعمل المحكم بالعلم، قال ابن قتيبة: لا يقال لشخص حكيماً حتى تجتمع له الحكمة في القول والفعل، ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيماً حتى يكون عاملاً بها[2].

وقيل: إنه عاش ألف سنة، وأدركه داود وأخذ عنه العلم.

رابعاً: حكمة لقمان:

حكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير. وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب الجامع، وذكر حكمة له في كتاب جامع العتبية، وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده. كما أنّه لا يُعرف كتابٌ جمع حكمة لقمان[3].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج١٨، ص٥٤٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ج١٥، ص١٥٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ج٢١، ص١٥٠.

يذكر الطاهر بن عاشور أنه لما كتب تفسيره «التحرير والتنوير» انتهت إليه من حكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآيات التي نحن بصدد دراستها[1].

ومن حكم لقمان:

ـ قيل له: أي الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

ـ قال له داود يوماً: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في يد غيري، فتفكّر داود فيه فصعق صعقة[2].

ـ أي بنيّ! إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو، ولا أراك إلا ناجياً.

ـ من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه، زاده الله بذلك عزاً، والذل في طاعة الله، أقرب من التعزز بالمعصية.

ـ يا بني! لا تكن حلواً فتُبلع، ولا مراً فتلفظ.

ـ يا بني! إذا أردت أن تُؤاخي رجلاً فأغضبْه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه فآخه، وإلا فاحذره[3].

ـ يا بني! أكلتُ الحنظل، وذقت الصبر، فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن تسأل الله تعالى من فضله،

---

(١) المرجع السابق، ص١٥١.

(٢) تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسي: ج٧، ص١٨١.

(٣) تفسير المراغي: ج٢١، ص٧٩.

فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعاه فلم يجبه، أو تضرع إليه فلم يكشف ما به[1]؟!

ـ مرّ رجل بلقمان والناس عنده فقال: ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: تقوى الله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السكوت عما لا يعنيني.

ـ يا بني! عليك بمجالس العلماء، واستمع لكلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر.

ـ يا بني! ارجُ الله رجاءً لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيئس بها من رحمته، قال: يا أبتاه! وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: المؤمن كذا، له قلبان، قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

ـ يا بني! اتخذ تقوى الله تجارة يأتك الربح من غير بضاعة.

ـ يا بني! إذا انتهيت إلى قوم فارمهم بسهم الإسلام، ثم اجلس في ناحيتهم، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجلس معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوّل عنهم.

ـ ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه[2].

❋❋❋

(١) موسوعة روائع الشعر العربي، محمد عبد الرحيم: ج٨، ص٧.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج١١، ص٦٢٩ ـ ٦٤٥.

الباب الثاني

وصايا لقمان لابنه الواردة في سورة لقمان

الوصية الأولى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]: وعظ لقمان ابنه أوّلاً بعدم الشرك بالله ﷻ، وتوحيده ﷻ وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له في ذلك، وحذره من الشرك الذي هو ظلم عظيم.

الوصية الثانية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]: وجوب بر الأبناء لآبائهم.

الوصية الثالثة: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]: الأمر باتباع طريق أهل الصلاح.

الوصية الرابعة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦]: وجوب مراقبة الله تعالى في الحركات والسكنات وكافة الأحوال والأعمال؛ لأنه لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء.

الوصية الخامسة: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧]: وجوب إقامة الصلاة وأدائها بأركانها وواجباتها بخشوع.

الوصية السادسة: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوصية السابعة: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧]: وجوب الصبر أثناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذا الصبر على البلاء ومصائب الدنيا، وفي كافة الأحوال.

الوصية الثامنة: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]: النهي عن الإعراض عن الناس أثناء حديثه معهم، أو حديثهم معه تكبراً عليهم واحتقاراً لهم، بل يجب الإقبال عليهم بوجه طلق مع وجوب التواضع لهم وإلانة الجانب.

الوصية التاسعة: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩]: النهي عن المشي بتكبر وخيلاء إعجاباً بالنفس، وافتخاراً على الغير. ووجوب المشي باعتدال بين البطء والسرعة.

الوصية العاشرة: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]: الحث على خفض الصوت وعدم رفعه فوق الحاجة؛ لئلا يؤذي السامع، مشبهاً رفع الصوت فوق الحاجة بصوت الحمير الذي يعد أقبح الأصوات كونه مرتفعاً.

وبادئاً سنتكلم عن هذه الوصايا في نظرة إجمالية وموضوعية، قبل استخلاص جوانبها التربوية:

فقد بدأ الله تبارك وتعالى بالتعريف بلقمان، ووصَفه بالحكمة والصلاح قبل الخوض في وصاياه لابنه؛ لإشعار القارئ بأهمية هذه الوصايا اللقمانية، فصاحبها ذو حكمة بالغة، وعقل بالغ راجح؛ ولذلك ذكَرَها الله في كتابه؛ ليَعمل بها المسلمون حتى تقوم الساعة، فليسَت مِن قبيل السرد، حاشا لله ذلك.

وقد استعمل لقمان في هذا الموقف التربوي أسلوبَ الوعظ، وهو أسلوب يتمثَّل في التذكير بوجوه الخير، والزجر المُقترِن بالتخويف من وجوهِ الشَّرِّ بأسلوب

رقيق تَغمره الرحمة، يَشعُر معه الموعوظ بخوف الواعظ عليه، وإشفاقه عليه، رحمة ورأفة به، فتلمس الموعظة شغاف قلبه، وتَستقرُّ في وجدانه. لذلك يعدُّ هذا الأسلوب الذي استخدمه ذلك الرجل الموصوف مِن قِبَل الله بالحِكمة ـ من أفضل وأحكم الأب التي تستخدم في التوجيه والإرشاد قديماً وحديثاً؛ لأن الإنسان ـ وخاصة الصغير ـ إذا أحسَّ حرص مَن يُرشده عليه، وإشفاقه به، تمسّك بمَواعظه وتوجيهاته، بحيث تُصبح اتجاهاً مِن اتجاهاته وعادة من عاداته.

وهذه الوصايا عبارة عن تسْع مواعظ جمعْنَ في طياتها جميع مظاهر التربية، كما أن كل موعظة فيها أصل من الأصول التربوية التي يجب أن يَكتسبها الأولاد، وإذا أخلّ المربي بواحدة منها ولم يَكتسِبها الصبي اختلَّ ميزان التربية عند الصبي، وبان تأثيرها عليه، بحيث يُلاحَظ عليه هذا النقص.

فانتبه أيها المربي إلى هذه الوصايا، واحرص عليها أشدَّ الحرص؛ فالمولى تبارك وتعالى لم يُهيِّئ لها سورة من سور القرآن اعتباطاً، ولم يقدِّم لقائلها سُدًى، فانتبه وتيقَّظْ!

الوصية الأولى:

قال تعالى عن لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣]: هي الأولى؛ فهي الأَولى والأهمُّ في أولويات المربي الراشد العاقل، فهي الغاية التي لها خُلق الإنسان، وهي وظيفته الأساسية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والذي يَنشأ على عبادة غير الله فقد خسرَ دنياه وآخرته، وقضى عمره في همٍّ وغمٍّ وضيق وتعاسة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

لذلك أكَّد لقمان وصيته بعدَّة مؤكدات؛ ليشعر ابنه بأهميتها وخطورتها؛ منها قوله: «يَا بُنَيَّ» استرقاقاً واستعطافاً له؛ لجذب انتباهِه لما سيُلقى عليه، فضلاً عن تقديم النهي وتصدّره للوصية، وفصل أداته، فضلاً عن استخدام أداة التوكيد «إِنَّ»، فضلاً عن اللام في قوله: «لَظُلْم»، فضلاً عن إيراده سبب النهي وعلته، فضلاً عن تعظيم النهي وتهويله. وكان ذلك كله لما يعلمه ذلك الرجل الثاقب النظر من خطورة الشِّرك.

الوصية الثانية:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤]، وقرَن لقمان بين هذه الوصية وبين عبادة الله وعدم الشرك به، وكثيراً ما يَقرن الله ﷻ بين عبادته وحده وبين برِّ الوالدَين؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وجاء هذا الاقتران لبيان سموِّ منزلة الوالدَين.

وبعد أن أوصى لقمان بالوالدَين يخصُّ أمَّه ببيان ما تُكابده وتعانيه من المشاق والمتاعب في أثناء الحمل وبعده؛ بحيث يتزايد ضَعفُها يوماً بعد يوم، ويتجلى هذا العناء وتلك المشقة بأن تدخل بولدها في فترة الحضانة عامَين كاملين أيضاً من العناء والتعب النفسي والبدني. وقد خَّص لقمان هاتَين المرحلتين برغم ما يُعانيه الأب والأم من التعب والمشقة لأجل ولدهما حتى الموت؛ لأنهما يصل فيهما العناء والمشقة بالألم أقصى ما يكون، ويكون الولد فيهما أضعف ما يكون، يَخصُّهما بالذكر لاستعطاف الولد واسترقاقه ومخاطبة إحساسه ومشاعره، فيكون مع ذلك الوعظ أبلغ وأجدى لدى الصبي.

ويُؤخذ من هذا الأسلوب ضرورة الأخذ به في مخاطبة الشباب؛ لما يُحدثه هذا الأسلوب لديهم من نتائج مُثمرة، فالشاب ـ وخاصة الناشئ ـ تؤثر فيه الانفعالات أكثر مِن الأوامر، حتى ولو كانت مصحوبة بالدليل والحجَّة، فمِن الأفضل مخاطبة قلبه لا عقله.

ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، أنَّ شكْر الوالدَين المُنعمين اللذين جعلهما الله سبباً في الحياة والوجود يأتي بعد شُكر مَن سبَّب الأسباب، وهذا يُشعِر بترتيب الواجبات والحقوق.

فلُقمان في هذه الوصية يدعو ولدَه إلى أهمية الترابُط والتماسُك الاجتماعي، ويحثُّه على الصِّلات الاجتماعية، بالإشارة إلى أهمها وأولاها، وهو برُّ الوالدَين.

كما بيَّن له فضلهما ليحثَّه ويَدفعه إلى أهمية الاعتراف بالجَميل وردِّه، ويُبعده عن الجحود والنكران الذي يؤدِّي إلى البُغض والكراهية، اللذين يؤديان إلى العزلة والانقطاع عن الناس، وهذا ضد طبيعة الإنسان.

وبعد أن قرن لقمان ذاك الرجل الحكيم بين طاعة الله وطاعة الوالدَين وبِرِّهما، بيَّن له حدود هذه الطاعة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]

فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق مهما علا قدرُ هذا المخلوق، ولو كان أباً أو أمّاً، فبيَّن له في الآية آداب معاملة الأبوَين الكافرين، فالإسلام لا يمنع من مصاحبتهما، والإحسان إليهما، والقيام عليهما وطاعتهما، كونها لن تَخرج عن طاعة الله.

وفي هذا تأكيد لما ينبغي أن يكون عليه المربي في توجيهاته وإرشاداته مِن الدقَّة والوضوح وعدم التعميم، بل ميدان التربية يَقتضي التفصيل والإيضاح، وخاصة إذا كان المقصود منهم في مرحلة اليفاعة وبداية الرشد.

وتختتم هذه الوصية بمن يَنبغي مصاحبتهم ومُعاشرتهم واتباعهم بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]؛ أي: المستحقون الاتباع هم الذين يَخصُّون الله بالعبادة، ويُخلِصون له في الطاعات وعمل الصالحات؛ لأن هؤلاء لا يأمرون إلا بمعروف، ولا يَنهون إلا عن مُنكَر، ففي اتباعهم الفوز بالدارَين، وهذا هو هدف التربية القرآنية. ويعزي لقمان بهذا التوجيه إلى خطورة الصداقة والاتباع بالنسبة لهذه المرحلة العمرية من حياة الأولاد؛ فالمراهق بخروجه من مرحلة الطفولة وما فيها من اتباع واعتماد شبه كلي على المربِّين إلى مرحلة الرشد والانخراط في الأعمال والاعتماد على النفس، فهو يُحاول التحرُّر من القيود التي يفرضها عليه الكبار، فيَنخرِط في جماعة الرفاق، فيتبع ما تُمليه عليه الجماعة مِن قيَم ومعايير للحُكم على السلوك.

ومِن هنا يجب على المربِّين أن يَغرسوا ويبثُّوا في أذهان وقلوب أولادهم معايير الحكم على الأصدقاء واختيارهم؛ حتى لا ينخرطوا في جماعة فاسدة، فيَحصدوا ما زرع مربُّوهم من أسس ومبادئ تربوية.

الوصية الثالثة:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فبعد أن خاطب لقمان وجدان ابنه في الوصية السابقة، يَبعث في نفسه الوازع على مراقبة حدود الله، والوقوف عند زواجره والتزام أوامره، بصرف النظر عن وجود الرقابة الخارجية من أفراد وقوانين

وسلطات، وغير ذلك. ومن الثابت عملياً أنه لا نجاحَ لأي نظام رقابي لا يَرعى تَنمية رقابة الذات، فمع وجود القوانين واللوائح تَحدث الجرائم، منها ما يُكشف ويفتضح أمرها، ومنها ما تظل مستورة لا يعلم بها إلا الله، ناهيك عن جرائم العمل من تكاسل ورشوة وغيره. فلكل فرد خلوات وانفرادات مع نفسه، يستطيع من خلالها خرق الحدود والقوانين، بحيث لا يَردعه إلا استحضار رقابة الله له.

ويجب أن يثبَّتَ هذا الوازعُ منذ الطفولة، ويُهتمَّ بتنمية وتوضيح معانيه، والتصريح به في سن اليفاعة، ذاك الطور الوجداني، وهذا ما فعَلَه ذاك الرجل الحكيم لقمان.

الوصية الرابعة:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [لقمان: ١٧]، وهنا يوجِّه لقمان ابنه في هذه الوصية إلى أداء العبادات، وعمل الطاعات، واختصَّ الصلاة دون سائر العبادات؛ لأن الصلاة هي العبادة الجامعة لكل أنواع العبادات والطاعات من صوم وحج وإحسان وغيره؛ فالمصلي يقصد بيتاً من بيوت الله ليؤدي فيه الصلاة، كما يمتنع عن الطعام والشراب في أثنائها، وما يفعله من حركات يُزكِّي بها عن نفسه، فضلاً عن أهميتها؛ حيث لم يفرضها الله على الأرض كغيرها من العبادات، وإنما فرضت في السماء بلا واسطة بين الله وبين المصطفى ﷺ، فضلاً عن كونها العبادة التي لا عذر في تركها، فضلاً عن كونها أكثر العبادات أداءً؛ فهي تُقام في شريعة الإسلام خمس مرات في اليوم والليلة باستثناء النوافل؛ لذا اختصَّها لقمان بالذِّكر.

وفي توجيهِ لقمان لابنه بإقامة الصلاة إصلاحٌ لنفسه وتهذيب لأخلاقياته؛ فالمُصلِّي يَشعر بالراحة والطمأنينة من جراء الخشوع والسكون المصاحب لها،

فضلاً عن أن تعاقُبَ الصلوات الواحدة تلو الأخرى تنميةٌ وترسيخ للرقابة التي سبقت الوصيةُ بها. كما أن المصلي لا يستطيع الشيطان أن يستحوذ عليه؛ لأنه يجدِّد العهد مع الله في كل صلاة، من استعاذة واستغفار. أضف إلى ذلك ما تُحدِثه صلاة الجماعة من ترابط وتماسُك اجتماعي، فضلاً عن تكوين علاقة اجتماعية قائمة على الأخوَّة الإيمانية لا تشُوبها شائبة من شوائب الدنيا ومصالحِها. ولو فتحنا في الكلام عن فوائد الصلاة لاحتاج الأمرُ إلى مجلدات؛ لغزارة فوائدها النفسية والبدنية والاجتماعية.

ويُعلمنا لقمان في هذه الوصية أسلوباً آخر من أساليب التربية، وهو أسلوب التعويد؛ وذلك من خلال أمر الأولاد بإقامة العبادات والطاعات قبل سنِّ التكليف؛ ليَعتادوها ويَألفوها، وكذا الحال مع شتى السلوكيات الإسلامية، وهذا هو مَقصد التربية، حيث يقصد منها جعل الأولاد يسلكون السلوكيات المنشودة تلقائيّاً، بحيث تصبح عادة لهم.

الوصية الخامسة:

قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، يوجه لقمان في هذه الوصية ابنه إلى ما يثبت ويرسِّخ عنده المعروف، ويمنع عنه المنكر؛ من خلال الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكَر؛ لأن الإنسان إذا ما دعا إلى شيء جمع عنه من المعلومات الكثير، واستخدم كل مداركه وقدراته في سبيل دعوته إليه، ومِن ثَمَّ فهو أولى الناس بالالتزام بهذا المعروف، وهذا هو الحال مع النهي عن المُنكَر؛ فالناهي عن شيء لا بدَّ أنه يعلم مضارَّه، فهو أجدر على اجتنابه، ومِن ثَمَّ تُصبِح هذه الوصية بمثابة الدرع الواقي والحِصن الحصين الذي يَحمي الأولاد من الزيغ والهلاك.

فضلاً عن أن لقمان في هذه الوصية أيضاً يوجه ابنه إلى تحمل المسؤولية الاجتماعية، فيوجهه إلى تحمُّل هموم مجتمعه، وعدم السلبية تجاه ما يَحدث في المجتمع من اجتناب المعروف وإتيان المُنكَر، فلا بد للمُلتزمين من دور في الإصلاح، وإلا فإن الفساد الاجتماعي ليس بمعزل عن مجتمعه، وكما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكما عهدنا على ذلك الرجل الحكيم من الدقة والوضوح في وصاياه، فها هو بعد أن وجه ابنه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يَترُكه دون أن يذكر له الوسيلة التي تُعينه على أداء هذه الوصية، وهي تتمثل في الصبر؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يَجرَّان للقائم بهما معاداةً مِن بعض الناس، أو أذى منهم أيضاً، فإذا لم يلتزم بالصبر فإنه يقرب إلى أن يتركه. ويُعزِّز لقمان قيمة الصبر لابنه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، أي: من الأمور التي أوجبها الله سبحانه.

ويدلنا لقمان على أسلوب ثالث من أساليب التربية، وهو أسلوب التعزيز، وهو تقوية التوجيه بأن يُضيف المربي إلى فعل الولد أو إلى التوجيه والإرشاد ما يُعزِّز ويقوِّي من اكتساب هذا التوجيه والتعوُّد عليه.

الوصية السادسة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: ١٨]، بعد أن أنهى لقمان وصاياه الأصولية والتعبُّدية انتقل إلى لون آخر من ألوان التربية، وهو: الآداب في معاملة الناس، أو فن العلاقات العامة، كما يُسمَّى الآن.

و**الصَّعَر**: داء يُصيب الإبل فيَلوي عنقه، فاستعار هذا الأسلوب كناية عن التعالي والاستكبار على الناس، ليزرع ذلك الحكيم في نفس ابنه أن هذا السلوك الشاذ هو بمثابة داء نفسي يُصيب الإنسان مثل داء الصعَر الذي يُصيب الإبل، واستخدامُه لهذا الأسلوب في النهي عن الكِبر أبلغُ في التنفير منه والزجر عنه من استخدامه للنهي دونه؛ فهو يخاطب وجدان ابنه كما أسلفنا، فيُشعره بأن هذا السلوك هو سلوك حيواني، ولا يسلكه الحيوان إلا إذا كان به مرض، فيجدُرُ بالإنسان المكرم المعافى ألا يسلك مثل هذا السلوك الذي تَنفِر منه الطباع.

وهذا أسلوب رابع من أساليب التربية التي يُعلِّمها لنا الله إلى يوم القيامة على لسان ذلك الحكيم، فأسلوب التشبيه أسلوب تربوي فعال؛ لأنه يجمع بين مخاطبة العقول والنفوس، وهو عبارة عن توجيه للخير، أو نهي عن الشر، في أسلوب ضِمني غير مباشر، ولذلك فهو آكد وأبلغ في الاستخدام التربوي من كثير من الأساليب المباشرة.

والكِبْر داء نفسي واجتماعي يَشعُر معه صاحبه بأنه أفضل من غيره، فيَسلك ما يُعبِّر عن هذا الشعور فيتأذى منه الناس لذلك، فهو أسلوب يثير الكراهية والبغضاء، ويَحمل النفوس على الحقد فيَقتُل مع ألم الأخوة الاجتماعية، ويَصنع بدلاً من المحبة والألفة والمودة بين أفراد المجتمع الكراهيةَ والحقد، فتتفكَّك بذلك أواصر العلاقات الاجتماعية، وتَزول هيبة المجتمع ووحدته من كثرة الخلافات والانشقاقات الاجتماعية التي يَجلبها هذا المرض في حال تفشِّيه.

الوصية السابعة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان: ١٨]، نظراً لخطورة التكبُّر والاستعلاء ومضارِّه الواضحة على الفرد والمجتمع، فقد كرَّر

لقمان النهي عنه لابنه، ولكن في أسلوب مغاير للسابق، لعدم إثارة الملل والرتابة، وهو في ذلك يعبر بقوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض، فقصد من المشي مع الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم؛ أي: لا تمش مع الناس وأنت بينهم مختالاً مزهوّاً فخوراً بنفسك، بل أَلِنْ جانبَك، وتواضع لهم، فهو يُشعره بهذا الأسلوب أنه مساوٍ لجميع الناس عامتهم.

وبعد أن أنهى لقمان وصيته السابعة أتبع وصيته بأسلوب حكيم في شدة التنفير، وحيث إن سلوك الكِبر والفخر على الناس لا يرضاه الله ولا يحبه، ومن ثم لا يحب فاعله، فهذا الأسلوب جاء تأكيداً وتعزيزاً للوصيتين السابقتين، بما لا يدع مجالاً للوقوع في هذا الدَّاء العُضال.

ومنه نتعلَّمُ أن النهي عن السلوك الشائع أو الأمر بالسلوك الغائب يَنبغي أن يُكرَّر ويؤكَّد، ولكن بأسلوب لا يبعث على الملل؛ لأن التكرار يؤكد المعنى ويُرسِّخه، ولكن مع المغايرة في الأسلوب، حتى لا يكون باعثاً على الرتابة والملل فتضيع ثمرته، وهذا التكرار هو أسلوب مختلف من أساليب التربية التي استخدمها لقمان الحكيم مع ابنه.

الوصية الثامنة:

قال تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، بعد أن انتهى لقمان من نهْي ابنه عن الأمور التي تجلب الكُرْه والبغضاء بين الناس، شرع في توجيهه إلى ما يبعث على الاحترام والألفة، وبعد أن بيَّن له آداب معاملة الناس أتبعه ببيان آدابه الخاصة به، و**القصد:** هو الاعتدالُ والتوسط في الأمور كلها؛ فهذه دعوةٌ للاعتدال في الأمور كلها دون إفراط ولا تفريط، فحياة الإنسان على ظهر الأرض قائمةٌ على الاقتصاد والاعتدال في كل من أحيا الحياة، في الطعام والشراب، في

النفقة والكساء، في مُعاشرة الخَلق، في النوم واليقظة، في السعي والعمل...، وفي كل شيء.

ولكن لقمان خصَّ المشي بالاعتدال، وربما قصد منه أن المشي مجتمِع فيه أغلب شؤون الحياة، فمَن أكثرَ الطعامَ وأقلَّ من النوم لا يستطيع الاعتدال في المشي، وهكذا، ومَن أبطأ في المشي عرَّض نفسه للفتن، فربما وقع نظره على محرَّم؛ فالطرقات لا تخلو من الفتن، كما أن الإسراع ربما يؤدي إلى الهلكة، فالاقتصاد أولى، وربما خصَّ لقمان المشي بالذكر لأنه أظهر ما يلوح عن الفرد.

الوصية الأخيرة:

قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان: ١٩]، هذه الوصية هي حثٌّ على الثقة بالنفس، وتنفير من سوء الأدب؛ فالصوت المرتفع دليل على ضعف حجَّة صاحبه، فهو يُحاول أن يُفحم المخاطب ويَحمله على رأيه بعلوِّ الصوت بدلاً من الحجة والإقناع؛ لذلك فهو شاكٌّ فيما يقول، لا يقدر شخصيته، يَشعُر مع ذلك بالنقص، فيُحاول أن يستعيض عن ذلك بالحدة والغلظة في القول، لذلك فهي وصية ضمنية بمثابة دعوة وحثٍّ على التثبُّت والتروِّي قبل الكلام، والوثوق بالنفس وتقدير الذات.

وفي قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾، لقمان بهذه الجملة يُزوِّد ابنه بالمعلومات في أثناء انشغاله بنُصحه وإرشاده، فجمَع فيها بين التنفير والتحذير من ارتفاع الصوت وبين إكساب المعلومات وتوسيع مدارك العقل.

وما فعله لقمان يُنادي به التربويون اليوم، فهم ينبّهون على أن المربي الجيد هو الذي يجمع بين التوجيه والإرشاد وبين التزويد بالمعلومات والبيانات.

الفصل الثاني

الباب الأول: مقاصد سورة لقمان.

الباب الثاني: أغراض سورة لقمان.

الباب الأول
مقاصد سورة لقمان

تضمنت سورة لقمان عدداً من المقاصد، نذكر منها الآتي:

١ ـ إثبات الحكمة للقرآن الكريم، اللازم منه حكمة منزِّله سبحانه في أقواله وأفعاله، وقصة لقمان الحكيم، المسمى بها السورة دليل واضح على ذلك.

٢ ـ صُدِّرت السورة بالإشارة بهدي القرآن؛ ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدر هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان.

٣ ـ تسفيه من يتخذ آيات الله هزواً، ويتبع كل ما كان ملهياً عن دين الله وطاعته.

٤ ـ بيان قدرة الله في الخلق والإبداع، والإيجاد والإمداد.

٥ ـ التنويه بذكر لقمان بأن آتاه الله الحكمة، وأمره بشكر النعمة. وذكر وصاياه وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، والأمر ببر الوالدين، ومراقبة الله؛ لأنه عليم بخفيات الأمور، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتحذير من الكبر والعجب، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

٦ ـ عالجت السورة قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة، حقيقة توحيد الخالق وعبادته وحده، وشكر آلائه، واليقين بالآخرة

وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، واتباع ما أنزل الله والتخلي عما عداه من مألوفات ومعتقدات.

٧ ـ ذكّرت المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم، وكيف أعرضوا عن هديه، وتمسكوا بما ألفوا عليه آباءهم.

٨ ـ بينت السورة مزية دين الإسلام، وأنه هو الدين الحق، من تمسك به فقد رشد وفاز، ومن أعرض عنه فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً.

٩ ـ تضمنت السورة تسلية للرسول الكريم ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنه لا يحزنه كفر من كفروا.

١٠ ـ الرد على المعارضين للقرآن في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وبيان امتداد علم الله سبحانه بلا نهاية، وانطلاق مشيئته في الخلق والإنشاء بلا حدود، وجَعْلُ هذا دليلاً كونيّاً على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء.

١١ ـ بينت السورة أن قضية الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكفر.

١٢ ـ بيان طبيعة النفس الإنسانية؛ وأنه إذا دهمها الخطر لجأت إليه سبحانه؛ ثم إذا كشف الخطر عنها فمن تلك النفوس من يبقى مستمسكاً بما عاهد الله عليه، ومنهم من يرتد على عقبيه، ويجحد نعمة الله عليه.

١٣ ـ بيان أهمية التقوى في حياة الإنسان، وأن الإنسان لا ينفعه يوم الحساب إلا ما قدمه من عمل صالح، ولا يغني عنه في ذاك اليوم عمل الآخرين، ولو كانوا أقرب الناس إليه.

١٤ ـ خُتمت السورة بالتحذير من دعوة الشيطان، والتنبيه إلى بطلان ادعاء الكهان علم الغيب، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

الباب الثاني
أغراض سورة لقمان

بعد أن تعرفنا على مقاصد سورة لقمان، نستطلع الآن أغراضها التي استجلاها علماء التفسير الموضوعي للقرآن، وهي[1]:

١ ـ إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله سبحانه في أقواله وأفعاله، وقصة لقمان المسمى به السورة دليل واضح على ذلك.

٢ ـ التنويه بهدي القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه.

٣ ـ تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة.

٤ ـ وصايا لقمان.

٥ ـ تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم.

٦ ـ ذكر مزية دين الإسلام.

٧ ـ تسلية الرسول ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنه لا يحزنه كفر من كفر.

٨ ـ الرد على المعارضين للقرآن.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ص١٤٠ـ١٤١.

٩ ـ التحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء الكهان علم الغيب.

١٠ ـ تبيان ما في قصة لقمان من علم وحكمة وهدى، وأنها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها.

الفصل الثالث

الباب الأول: المناسبات في سورة لقمان

أولاً: مناسبة فاتحة السورة وما قبلها.

ثانياً: مناسبة خواتيم السورة وما بعدها.

ثالثاً: مناسبة اسم السورة مع محتواها.

رابعاً: مناسبة آيات لقمان مع ما قبلها.

خامساً: مناسبة آيات لقمان مع ما بعدها.

الباب الثاني: محور سورة لقمان

الباب الأول

المناسبات في سورة لقمان[1]

أولاً: مناسبة فاتحة السورة وما قبلها:

لما ختم الله ﷻ سورة الروم بالحث على العلم، وهو ما تضمنه هذا الكتاب العظيم، والأمر بالصبر والتمسك بما فيه من وعد والنهي عن الأطماع لأهل الاستخفاف في المقاربة لهم في شيء من الأوصاف، وكان ذلك هو الحكمة، قال في أول سورة لقمان ﴿الٓمٓ ۝١﴾ مشيراً بها إلى أن الله الملك الأعلى القيوم أرسل جبريل إلى محمد ﷺ بوحي ناطق من الحكم والأحكام بما لم ينطق به من قبله إمام ولا يلحقه في ذلك شيء مدى الأيام، فهو المبدأ وهو الختام.

قال تعالى في سورة الروم ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الروم: ٥٨] فأشار إلى ذلك بقوله ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وكان في آخر تلك الآيات: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ [الروم: ٥٨] وهنا ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ و(تلك) إشارة إلى البعيد، فاحتمل أن يكون ذلك لبعد غايته وعلو شانه، و(آيات الكتاب) القرآن، واللوح المحفوظ، ووصف الكتاب بالحكيم يمكن أن يكون لتضمنه للحكمة، ويجوز أن يكون بمعنى حاكم[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص١٤٢.

(٢) تفسير البحر المحيط: ج٧، ص١٧٨.

ثانياً: مناسبة خواتيم السورة وما بعدها:

لما كان المقصود في سورة لقمان إثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب، وختمها بأنه ﷻ مختص بعلم المفاتيح بعد أن أنذر بأمر الساعة، فثبت بذلك وما قبله أنه ما أثبت شيئاً فقدر غيره من أهل الكتاب ولا غيرهم على نفيه، ولا نفى شيئاً فقدر غيره على إثباته ولا إثبات شيء منه، كانت نتيجة ذلك أنه لا يكون شيء من الأشياء دقيقها وجليلها إلا بعلمه ﷻ، وأجل ذلك إنزال هذا الذكر الحكيم الذي فيه إثبات هذه العلوم مع شهادة العجز عن معارضته له بأنه من عند الله، فلذلك قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١).

ثالثاً: مناسبة اسم السورة مع محتواها:

سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لاشتمالها على ذكر لقمان وحكمته والآداب التي أدب بها ابنه، ولاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة(٢).

رابعاً: مناسبة آيات لقمان مع ما قبلها:

لما ثبتت حكمته سبحانه وأنه أبعد الظالمين عنها بما قص عليهم من الجهل وغباوة العقل وأتاها من تاب واعتصم بآيات الكتاب، توقع السامع الإخبار عن بعض من أتاه الحكمة من المتقدمين الذين كانوا من المحسنين، فوضعوا الأشياء في مواضعها، بأن آمنوا وعملوا الصالحات، فأعطانا مثالاً حياً لشخصية حقيقية تتصف بالحكمة عاشت في زمان سابق، وهي شخصية لقمان الحكيم، ووصفه بالحكمة، ثم ذكر جانباً من وصاياه لابنه التي تتصف بالحكمة ولا تصدر إلا من عارف حكيم.

---

(١) [السجدة: ٢]، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ج١٥، ص١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٢.

خامساً: مناسبة آيات لقمان مع ما بعدها:

ذكر الله أمر لقمان لابنه بالعبادة والتذلل، وأن إليه المرجع وهو عالم بكل شيء قادر على كل شيء، وأن كل النعم منه، فلا ينبغي لأحد أن يفخر بما آتاه الله، ولو وكل فيه إلى نفسه لم يقدر على شيء منه، محذراً من سلبها عن المتكبر وإعطائها للذليل المحتقر، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ فتعلموا أن الكل خلقه، ما لأحد ممن دونه في شيء، وأنه محيط بكل شيء قدرة وعلماً، فهو قادر على تعسيره كما قدّر تسخيرَه.

❋❋❋

الباب الثاني
محور سورة لقمان

محور السورة تربية الأولاد، فهي تمثل بحق أفضل طرق للتربية، وجاءت آياتها فيها رقة وحذر ولطف وهدوء، فلقمان أوصى ابنه بكل مودة ولطف ورقة، وهو يكثر من استخدام كلمة يا بني، وأوصاه بوصايا هي قمة الآداب الاجتماعية والأخلاق الحميدة.

ويمكننا أن نعرف هذا المغزى التربوي من خلال معرفتنا لسبب نزول الآيات عن قصة لقمان، فقد نزلت في النضر بن الحارث، «كان يتجر إلى فارس ويشتري كتب الأعاجم، فيحدث قريشاً بحديث رستم وإسفنديار ويقول: «يخبركم محمد عن عاد وثمود، وأحدثكم أنا عن رستم وإسفنديار وبهرام»، فصدرت هذه السورة بالتنويه بهدي القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثلاً للكمال النفسي، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدر هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان، وقيل سبب نزول هذه السورة أن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، أي: سألوه سؤال تعنت واختبار»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٦، ص٤٦٨.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ اشترى قينة وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ثم يقول له: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت[1].

فلكل مجتمع مبادئ وأسس يتربى عليها أفراد ذلك المجتمع، والمجتمع الإسلامي مجتمع تربى الفرد فيه ومنذ نعومة أظافره على القيم والمبادئ الإسلامية السمحة التي أعطت لكل ذي حق حقه، فالطفل يتربى في هذا المجتمع على الأخلاق الحميدة والخلق الرفيع الذي دعا إليه الإسلام منذ نزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ.

فنجد الإشارات الواضحة إلى مبادئ التربية من خلال القرآن الكريم في الكثير من سوره المباركة وفي أحاديث المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وتعد مسؤولية التربية وتنشئة الأبناء تنشئة سليمة سوية من أهم الواجبات التي تقع على عاتق الوالدين، حيث إن الأسرة هي النواة الأولى للمجتمع، وإذا ما أردنا مجتمعاً سليماً معافى علينا الاهتمام بالأسرة أولاً، وعلينا أن ننظر إلى مدى صحتها وسلامة بنائها داخل ذلك المجتمع.

وإذا كانت التربية هي تعهّد نمو الشيء مرحلة بعد مرحلة حتى يبلغ تمام نموّه وكماله؛ لذا فإن الوالدين مدعوان إلى تفهم مرحلة الطفولة التي يمر بها أبناؤهما تفهماً صحيحاً، ومعرفة طبيعة هذه المرحلة العمرية وحاجاتها ومتطلباتها التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى آخر.

والتربية الصحيحة تقوم على معرفة الوالدين كيفية التعامل مع أطفالهما، وعدم تلبية رغباتهم على الدوام؛ لأن ذلك يعتبر من أساليب التربية غير

---

(١) أسباب النزول للسيوطي، ص١٦٩.

الصحيحة، فالأطفال غالباً لا يعرفون مصلحتهم. كما أن أول أسس التربية السليمة تعليم الطفل أن يكون ودوداً محباً للآخرين، وألا يتكبر أو يتعجرف مع الزملاء والأصدقاء؛ لأن ذلك يربك العلاقة بينهم في المستقبل.

ولا ننسى أن تربية الطفل من أهم الأمور المؤثرة على تنشئة المجتمع بشكل كامل، فالوالدان بتربيتهما لأطفالهما يؤثران على مجتمع بأكمله، فكثير من الأحداث والسلوكيّات التي ظهرت في مجتمعنا وانتشرت بشكل كبير كانعدام الأخلاق للكثير من التصرّفات التي انتشرت حديثاً، كان من أهم أسبابها هي البيئة التي نشأ فيها هذا الفرد، حيث أثر على مجتمع بأكمله، فيجب الحرص والانتباه على أدق التّفاصيل عند تربية الأبناء، فهم يلاحظون تصرفاتنا ويعتقدون أنّنا نتصرّف دائماً بشكل صائب، فيحاولون تقليدنا، هنا يكون دور الأسرة الأساسي، وهو أن يكونوا فعلاً قدوة لأبنائهم.

ومن هنا ينبغي على الوالدين بناء صورة طيبة لأطفالهم حتى لا يتعذبوا في المستقبل، فالقدوة الحسنة التي يزرعها الوالدان في نفوس أطفالهم ستساعدهم في حياتهم القادمة، وهذا لا يتأتى إلا من خلال القيم التربوية السليمة القائمة على العقيدة الصحيحة والدين القويم.

إن محور سورة لقمان توجيه الوالدين إلى معرفة الغث من الثمين في أساليب التربية لأولادهم ـ ولا سيما في هذا العصر ـ فيجب اتباع قواعد التربية السليمة للأطفال من خلال الحرص على بناء وتنمية الذكاء الوجداني، ويكون ذلك بإشباع حاجات الطفل الطبيعية من الأمن والاستقرار لتحقيق السكينة النفسية والاجتماعية، فقد أثبتت الدراسات النفسية أن الشخص الذي يعيش حرماناً عاطفياً في طفولته يصعب عليه محبة الآخرين أو تقبُّل محبتهم له، لذلك

يجب وضع الطفل منذ اليوم الأول من ولادته موضع حب للأسرة بكاملها، وذلك عن طريق عدة وسائل وتصرفات، مثل[1]:

١ ـ القبلة والرأفة والرحمة بالطفل.

٢ ـ المداعبة والممازحة واللعب مع الطفل.

٣ ـ استخدام لغة الطفل وصوته في الكلام كثيراً، فرغم أن الطفل قد لا يستطيع بعد أن يتحدث مثل الكبار، إلا أنه يفهمهم جيداً.

٤ ـ وكما تشير الدراسات النفسية أن الأطفال قليلو التركيز ويتشتت انتباههم بسهولة وبسرعة، فيجب أن يكون الحديث معهم بسيطاً وسريعاً وليس معقداً.

٥ ـ يجب التركيز على بناء العلاقة الإيجابية، فلا يمكن تصور أي تربية إلا بوجود علاقة تفاعلية انسجامية بين المتواصلين، وهذا لا يمكن حسمه إلا كثمرة يقطفها أطفالنا من سلوكياتنا معهم، وذلك عن طريق التعبير له عن المحبة، فليس المهم أن نحب أبناءنا، ولكن المهم أن نعبر لهم عن هذه المحبة بالكلمة والسلوك؛ باعتباره كياناً مستقلاً معتمداً على ذاته من خلال تعاملنا معه؛ ما يكسبه ثقة في نفسه بعدم اللجوء إلى انتقاد تصرفاته باستمرار، بل العمل على توجيهه برحمة، وقبوله كما هو بأخطائه وليس بإنجازاته.

ولعل أول ما يتبادر في ذهننا بهذا الصدد الكلمة المفتاحية في وصية لقمان لابنه التي تحمل في طياتها تنمية الوجدان العاطفي للولد للانصياع للتعليمات والقواعد التربوية السليمة، وهي قوله: (يا بني).

---

(١) موقع مجلة طفلي ـ قواعد التربية السليمة للأطفال.

يشير مختصو التربية إلى أن للطفل بعض الصفات والسمات التي تظهر في مراحل عمرية معينة، يظنها الأهل أنها تصرف سيئ أو مشين من الأطفال، ولكن يشير الأستاذ الدكتور محمد سعيد مرسي في كتابه «كل ما تريد معرفته عن طفل ما قبل المدرسة» أن هناك العديد من الأصول التي يجب على أساسها التعامل مع الطفل، فهو بالطبع لا يدرك ما يدركه الآخرون من الكبار، ومن هذه الأسس ما يلي[1]:

١ ـ التعامل مع الأطفال الصغار باللين، فهو الأساس في التربية.

٢ ـ تجنب انتقاد الطفل بعنف وبشدة، فهذا يصيبه بالتوتر ويضعف له قدراته وثقته بنفسه.

٣ ـ تعويد الطفل على تحمل المسؤولية وبصورة تدريجية في صورة أوامر بسيطة تشعره بأهمية دوره في الأسرة.

٤ ـ الحذر من مقارنة الطفل مع الأطفال الآخرين.

كما يشير الدكتور مرسي إلى أن هناك أموراً أخرى يجب أن نعيها:

«هذا ومن الضروري إشراك الطفل في النشاطات الاجتماعية المختلفة، والتي من شأنها أن تجعل الطفل أكثر نشاطاً وثقة بالنفس، فتربية الطفل منذ نعومة أظفاره على الاتكال على أهله في كل شيء، حتى في كبره من اختيار العروس، ودفع تكاليف ومصاريف الزواج، يجعل الطفل ينشأ ويكبر رجلاً لا يستطيع التصرف كالرجال في المواقف المختلفة، والتدليل الزائد للطفل من قبل والديه، وعزله عن الناس بحجة المذاكرة والاجتهاد في دروسه، كلها أسباب تمنع الطفل

(١) كل ما تريد معرفته عن طفل ما قبل المدرسة، الدكتور محمد سعيد مرسي، ص٢٦، وما بعدها بتصرف.

من التواصل اجتماعياً مع من حوله، والنتيجة رجل وزوج غير قادر على التواصل الحياتي بصورة سليمة.

إن عدم تعويد الطفل على تحمل المسؤولية من شأنه أن يجعله سيئ التصرف عند الكبر ولا يتخذ قرارات سليمة. وعليه، يكبر الابن ليصبح عبئاً على زوجته أكثر منه سند لها، يتكئ عليها أكثر مما تتكئ عليه، تسانده أكثر مما يساندها، ومن هنا تنشأ نظرية «الأخذ والكسب الدائم» حيث يعتاد طرف من الأطراف على الأخذ طوال الوقت دون العطاء، مما يضعف العلاقة بين الزوجين، ويجعلها هشة قائمة على المصالح والمنفعة لطرف واحد فقط دون الآخر، فيأتي الشقاق.

وعدم تعويد الولد على احترام الآخرين، ومَن هم مختلفون عنه في الجنس أو الشكل أو اللون، من شأنه أيضاً أن يجعل الولد لا يحترم زميلته في الصف، وعليه فلن يحترم زوجته ولن يقدر قيمتها.

وعدم تعويد الطفل على التحدث بحرية والتعبير عما يريده، يجعله لا يحترم آراء الآخرين ولا يسمع إلا صوته فقط، وهو ما ينتج عنه ما نراه الآن من عدم الفهم، وفهم الآخر، والتعصب للرأي.

وعدم تعويد الطفل على دوره في الحياة وما يجب أن يفعله وما يكون مسؤولاً عنه حين يكبر، يجعل المجتمع يفرز ما نراه الآن من أنماط أشباه الرجال التي امتلأت بها الشوارع، فلا تستطيع من بعيد التفريق بين الولد والبنت لغرابة ما يلبس من ألوان وما يقصه من قصات الشعر..!».

الفصل الرابع

الباب الأول: الموضوعات التي تضمنتها سورة لقمان:

أولاً: خصائص القرآن.

ثانياً: أوصاف المؤمنين.

ثالثاً: إعراض الكافرين عن القرآن وإقبال المؤمنين عليه.

رابعاً: الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية الله وإبطال الشرك.

خامساً: قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه.

سادساً: توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد.

سابعاً: سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر.

ثامناً: إثبات وجود الله وسعة علمه، وشمول قدرته على البعث وكل شيء.

تاسعاً: الأمر بتقوى الله وبيان مفاتيح الغيب.

الباب الثاني: التربية وأهدافها في الفكر التربوي الإسلامي:

أولاً: التربية لغة واصطلاحاً.

ثانياً: أهداف التربية في الفكر الإسلامي.

ثالثاً: الهدف العام للتربية الإسلامية.

رابعاً: الأهداف الفرعية للتربية الإسلامية.

خامساً: مصادر اشتقاق الأهداف في التربية الإسلامية.

الباب الأول
الموضوعات التي تضمنتها سورة لقمان

تضمنت سورة لقمان موضوعات متعددة يمكن إجمالها بما يلي[1]:

أولاً: خصائص القرآن:

ذكر الله ﷻ في هذه الآية المباركة خصائص القرآن الكريم، فهو معجزة النبي الكريم ﷺ الخالدة، ودستور المؤمنين ودليلهم إلى الهداية، وهو كتاب الله المحكم الذي لا خلل فيه ولا عوج ولا تناقض فيه ولا اختلاف.

ثانياً: أوصاف المؤمنين:

ذكر الله ﷻ صفات المؤمنين الذين يتصرفون بالإحسان وفعل عمدة الطاعات، وهي الصلاة، والزكاة، والإيمان باليوم الآخر (وتلك الطاعات هي أمهات العبادات، وهم بذلك على طريق الهدى، وهم الفائزون برضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي.

ثالثاً: إعراض الكافرين عن القرآن، وإقبال المؤمنين عليه:

جاء في هذه الآية ذكر حال الكافرين وإعراضهم عن القرآن، وأنهم يؤثرون لهو الحديث ليصرفوا الناس عن الاستماع إلى القرآن، فبشرهم الله بعذاب مهين. وفي المقابل ذكر الله تعالى المؤمنين وإقبالهم على القرآن الكريم، ووعده لهم بجنة النعيم، وأن يكونوا خالدين فيها.

---

(١) التحرير والتنوير: ٩٦/٢١.

رابعاً: الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية الله وإبطال الشرك:

استدل في هذه الآية الكريمة على قدرة الله العظيمة؛ إذ خلق السماء من غير عمد، وخلق الجبال كالأوتاد لئلا تميد الأرض وتضطرب، ونشر على الأرض كل دابة من إنسان وحيوان وطير، وأنزل من السماء ماء يسقي الزرع، فأنبت من كل زوج كريم.

وفي هذه الآية تحدى الله ﷻ الكافرين ببديع خلقه وكمال قدرته أن يعرضوا ماذا خلق الذي يعبدونه من دون الله.

خامساً: قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه:

ذكرت في هذه السورة قصة لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة لابنه تعليماً وإرشاداً للناس، وفي مقدمتها نبذ الشرك، وبر الوالدين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواضع، وإخفاض الصوت.

سادساً: توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد:

وبَّخ الله تعالى المشركين لإصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد في كل خلق خلقه مثل السماوات والأرض، وسخر ما فيها لمنافعهم وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، فهم يجادلون الله بغير علم ولا دليل معقول سوى تقليدهم الأعمى لآبائهم وأتباع الشيطان.

سابعاً: سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر:

بين الله ﷻ سلامة المنهج الذي اتبعه المؤمن، فقد استمسك بالعروة الوثقى وأخلص العبادة والعمل لله، وانقاد لأمره باتباع ما أمره به وترك ما نهى عنه؛ إذ سيلقى المؤمن الجزاء الحسن على عمله كما يعاقب المسيء بأشد العذاب.

ثامناً: إثبات وجود الله وسعة علمه، وشمول قدرته على البعث وكل شيء:

لو سئل المشركون: من خلق السموات والأرض؟ ليقولن: الله هو الخالق غير منكرين، وقد اعترفوا بهذا الاعتراف بالله خالقاً، ومع هذا فهم يعبدون مع الله شركاء، ويعترفون أن هؤلاء الشركاء مخلوقون ومملوكون له سبحانه، وهذا اعتراف صريح بوجود الله وتوحيده.

وبين الله ﷻ أنه قادر على البعث والمحشر كما قدر على الخلق أول مرة.

تاسعاً: الأمر بتقوى الله وبيان مفاتيح الغيب:

ختمت هذه السورة المباركة ببيان الأمر بتقوى الله والخوف من عذاب يوم القيامة؛ إذ لا ينفع فيها إلا من أتى الله بقلب سليم، ويجب عدم الاغترار بمتاع الدنيا. فالدنيا زائلة، والآخرة هي دار القرار. ونبّهت الآية إلى مفاتيح الغيب التي أخر الله بعلمها، وأن الله عليم، قد أحاط علمه بكل الكائنات، خبير بما يجري، ولا يخفى عليه شيء.

❋❋❋

الباب الثاني
التربية وأهدافها في الفكر التربوي الإسلامي

أولاً: التربية لغةً واصطلاحاً:

التربية لغة: قيل: هي مأخوذة من «ربَّ» فيقال: ربَّ ولده والصبي يربّه وربّبه تربيباً وتربة، ورباه تربية أحسن القيام عليه، ووليَه حتى يُفارق الطفولة، كان ابنه أو لم يكن[١].

وقيل: هي مأخوذة من الفعل ربا، قال ابن منظور: ربيت في حجر هو ربوت وربوْت في بني فلان ربواً.. نشأت فيهم، وربيت فلاناً أربيه تربية[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: «الرب» في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً محالاً إلى حد التمام يقال: ربه ورباه وربيه[٣].

وقال البيضاوي: الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً[٤].

أما التربية اصطلاحاً؛ فقد عرفها المحدثون تعريفات متعددة، فقال بعضهم: «هي عملية منظمة للأحداث، وتغيرات مرغوب فيها في سلوك الفرد من أجل تطوير متكامل لشخصيته في جوانبها الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية»[٥].

---

(١) لسان العرب: ٤٠١/١، ربّ.

(٢) لسان العرب: ٣٠٤/١٤، ربا.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٦/١.

(٤) تفسير البيضاوي: ٥١/١.

(٥) أساسيات علم النفس التربوي، ص٣.

وقيل: «إن التربية هي عملية اجتماعية تعكس طبيعة المجتمع وفلسفته وآماله وطموحاته»[1]، وهي «جزء من النظام الاجتماعي العام تؤثر وتتأثر به بعلاقة تفاعلية مستمرة حفاظاً على كيانه واستمراره، ولهذا تعد التربية مرآة المجتمع التي تكشف عن خصوصياته وتميزه عن غيره من المجتمعات»[2].

ثانياً: أهداف التربية في الفكر الإسلامي:

إن للإسلام أهدافه من تربية المسلم وتعليمه، يبدو ذلك جلياً من نصوص الكتاب والسنة النبوية الشريفة، وليس أدل على ذلك إلا أول ما نزل من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ...﴾ وقد تكرر الأمر في الآية الثالثة تأكيداً للأمر الأول، ووضح سبحانه أداة العلم بقوله: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يعني الخط والكتابة، ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ من أنواع الهدى والبيان.

وقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله، كما تقول: بنيت هذه الدار باسم الأمير، وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله؛ فإن العبادة إذا صارت لله تعالى، فكيف يجترئ الشيطان أن يتصرف في ما هو لله؟ وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره، فالعلم والتربية في الإسلام غايتهما الله ﷻ.

ونشير في تلك السطور إلى أهداف وأنواع التربية الإسلامية؛ إذ لا سبيل لأمتنا سوى الرجوع لمنابع العلم والأخلاق، والأخذ بأسباب القوة.

---

(١) التربية والمجتمع، ص١.

(٢) أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، ص٥٧ ـ ٦٠.

من الأهداف العامة للتربية الإسلامية عند المربين ما ذكره الدكتور أحمد مصطفى متولي، فقد قسم أسس التربية الإسلامية وأنواعها وأهدافها إلى أكثر من عشرة أقسام[1]:

١ ـ التربية الإيمانية، وقد أطلق عليها اسم التربية العقائدية.

٢ ـ التربية الخلقية، وقد أطلق عليها اسم التربية الأخلاقية.

٣ ـ التربية الاجتماعية.

٤ ـ التربية العقلية، وقد أطلق عليها اسم التربية الفكرية.

٥ ـ التربية النفسية.

٦ ـ التربية الجنسية.

٧ ـ التربية الفقهية، وهي تزويد الولد بالمادة العلمية الفقهية في العبادات، وحثه على الطهارة، والتدرب على ممارسة العبادات.

٨ ـ التربية الأدبية، وهي تربية الولد على الآداب مع الله وكتابه، ومع الرسول ﷺ وسنته، ومع الخلق والنفس، وتأصيل الآداب الفاضلة، والتنفير من الآداب السيئة.

٩ ـ التربية العلمية، وهي ترغيب الولد في طلب العلم الشرعي بذكر فضائله، وبيان أهميته، والصبر عليه، وأجر طالبه.

١٠ ـ التربية الجهادية، وهي تربية الولد على جهاد النفس على تعلم الهدى ودين الحق لإصلاحها، وعلى إلزامها بالعمل بما تعلمت، والدعوة إلى ما تعلمت، والصبر على الطاعات، وتجنب المنكرات.

---

(١) أسس التربية الإسلامية، الدكتور أحمد مصطفى متولي، ص٣٤ بتصرف.

١١ ـ التربية العاطفية، وهي تربية الولد على الشعور بشخصيته وكيانه، وأهمية وجوده في الحياة، وترسيخ صفات المحبة، والمودة، والعطف، والرأفة، والشفقة والحنان في نفسه، وتقويم انحرافاته العاطفية من خلال التعليم والتدريب والقدوة الحسنة.

١٢ ـ التربية الجنسية، وهي تربية الولد على حفظ الأعراض من التدنيس بسيئ الأخلاق، وقبيح الآداب، ووقايته من الفواحش والموبقات، واقتراف المعاصي والسيئات، وتجنيبه الأمراض.

١٣ ـ التربية الصحية، وهي تربية الولد على المحافظة على صحته: غذائياً، ورياضياً، وبدنياً، وطبياً، وجنسياً، ونفسياً، وعاطفياً.

وتهدف التربية الإيمانية إلى أربعة أمور:

١ ـ إرشاد الولد إلى الإيمان بالله، وقدرته المعجزة، وإبداعه الرائع عن طريق التأمل والتفكر في خلق السماوات والأرض، وذلك في سن الإدراك والتمييز.

٢ ـ غرس روح الخشوع، والتقوى، والعبودية لله تعالى في نفس الولد، بتفتيح بصيرته على قدرة الله تعالى المعجزة في كل شيء.

٣ ـ ترويض الولد على مراقبة الله تعالى، وتعليمه ما يقربه من خالقه.

٤ ـ ترويض الولد على تحقيق العبودية لله، في قصد وجه الله في أقواله وأفعاله، ليتعلم الإخلاص لرب العالمين.

أما التربية الخلقية فهي:

١ ـ تربية الولد على مجموعة المبادئ الخلقية، والفضائل السلوكية والوجدانية، والأخلاق الفاضلة الكريمة، ليعتاد عليها منذ تمييزه وتعقله.

٢ ـ تربية الولد على تجنب الأخلاق الذميمة، ومظاهر الميوعة والانحلال.

أما التربية الجسمية فهي:

١ ـ تربية الولد على اتباع القواعد الصحيحة في المأكل، والمشرب، والنوم.

٢ ـ التحرر من الأمراض السارية المعدية، وتجنب الظواهر التي تضر بالصحة: كالتدخين، واقتراف الزنى، وتعاطي المخدرات والمسكرات.

٣ ـ تعويد الولد على حياة الجد والرجولة، والابتعاد عن الميوعة.

أما التربية العقلية فهي:

١ ـ تكوين فكر الولد بما هو نافع من العلوم الشرعية، والثقافة العلمية والعصرية، حتى ينضج فكرياً، ويتكون علمياً وثقافياً.

٢ ـ تجنيب الولد المفاسد، كتعاطي المخدرات، واقتراف الفاحشة، والتدخين، ومشاهدة الأفلام الماجنة والصور العارية.

أما التربية النفسية فهي:

١ ـ تربية الولد منذ أن يعقل على الجرأة، والصراحة، والشجاعة، والشعور بالكمال، وحب الخير للآخرين، والانضباط عند الغضب، والتحلي بسائر الفضائل النفسية على الإطلاق.

٢ ـ تربية الولد على التخلص من الخجل، والخوف، والشعور بالنقص.

أما التربية الاجتماعية فهي:

١ ـ تربية الولد على قواعد التربية الفاضلة، ليعامل الناس بأدب، واتزان، وعقل ناضج، وتصرف حكيم.

٢ ـ غرس التقوى في نفس الولد، بحيث لا يراه الله حيث نهاه، وأن لا يفقده حيث أمره.

٣ ـ تربية الولد على الشعور برابطة الأخوة الإيمانية بينه وبين سائر المؤمنين، وتعميق روح المحبة، والاحترام، والتعاون، والإيثار في نفسه.

٤ ـ تربية الولد على الابتعاد عن كل ما يضر بالناس: في أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، والمساس بكرامتهم.

٥ ـ تربية الولد على الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، وكفكفة دموع أحزانهم وآلامهم، ومواساتهم.

٦ ـ تربية الولد على مراعاة حقوق الآخرين: الأب، والأم، وأولي الأرحام، والجار، والمعلم، والرفيق، والكبير.

٧ ـ تربية الولد على اتباع آداب الإسلام: في المأكل، والمشرب، والجلوس، والسلام، والاستئذان، وحضور المجالس، والحديث، وعيادة المريض.

٨ ـ تربية الولد منذ نعومة أظفاره على رقابة المجتمع، والنقد الاجتماعي البناء لكل من يعايشهم، وينتمي إليهم، ويلتقي معهم، والنصح لكل إنسان يرى منه شذوذاً أو انحرافاً. وبعبارة أخرى: تعويد الولد منذ نشأته على واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

أما التربية الجنسية فهي:

١ ـ تعليم الولد منذ أن يعقل القضايا التي تتعلق بالجنس، وترتبط بالغريزة؛ ليتفهم أمور الحياة: ما يحلّ له، وما يحرم عليه، فلا يجري وراء شهوة، ولا يتخبط في طريق تحلل.

٢ ـ تعليم الولد في سن التمييز آداب النظر، وتجنب الإثارة الجنسية، ومظاهر الفساد والإباحية، وتجنب أماكن اللهو والفساد الخلقي.

٣ ـ تعليم الولد تجنب مصاحبة أهل الفسق والفجور.

٤ ـ تعليم الولد أحكام المراهقة والبلوغ.

بهذا نكون قد أشرنا إلى أهم أنواع وأهداف التربية في الإسلام[١].

ومن خلال ما تقدم، نلاحظ أن الفكر الإسلامي التربوي فكرٌ شموليٌّ يقوم على أساس من العقيدة الربانية، وتأثيره في السلوك كبيرٌ، وهو من أعظم حاجات الإنسان المسلم في مراحل نموه كافة. من هنا لا بد من الاهتمام بتثقيف الطالب المتلقي للتعليم، وتربيته على أساس هذا الفكر في المراحل الدراسيّة المختلفة، بما فيها المرحلة الجامعيّة، بما يتلاءم مع مستوى نضج الطالب وحاجاته وخبراته.

تبدأ صلة المسلم بالفكر الإسلامي من طفولته، وتستمر في التصاعد بنمو وعيه وإدراكه، وهو بحاجة دائمة إلى ما يُلبي شغفه للعلم والمعرفة، وشوقه للصلة بربه، ورغبته في تطوير سلوكه. وهو يتوقع أن يجد في كل مرحلة ما لا يجده في المراحل السابقة، لذا لا بُد من مراعاة ذلك عند قيادة العمليّة التعليميّة، بما في ذلك الكتاب الذي يشكِّل، مع المحاضرات، المرجعيّة الأولى للطالب.

وقد حاول علماء التربية إعطاء مفهوم للفكر التربوي، فقال بعضهم: إنه «مجموعة المسلمات والفِكَر التي تؤلف النظرية الواحدة أو النظريات المتقاربة، والتي بدورها تعدُّ المرجعية والأساس لواضعي الاستراتيجيات والبرامج العملية في ميدان التعليم». وعلى هذا الأساس فهي جهود في الجانب النظري يتوقع أن يكون لها تأثير وفاعليّة في الجانب العملي للتعليم والفكر التربوي، باعتباره إحدى صور الفكر على وجه العموم؛ إذ هو وليد حركة المجتمع في بنيته الأساسية، وإفرازها؛ فعلى صفحاته تنعكس الظروف الاقتصادية والسياسية

(١) المرجع السابق، ص٤٥ ـ ٤٨ بتصرف.

والاجتماعية، وتشكّل اتجاهاته ومساراته بما تتخذه هذه الظروف من مسارات واتجاهات.

وإذا كان الفكر انعكاساً صادقاً لحياة الجماعة الإنسانية، فإن نوعه يتحدد بنوع هذه الحياة، وبالإطار العقائدي الذي يوجِّه مسارها، وطالما أننا نعيش في مجتمع إسلامي؛ فإن الفكر الذي يعكس حياتنا الثقافية في المجال التعليمي هو الفكر التربوي الإسلامي؛ بكل أصوله وركائزه ومحدداته ومقوماته وأساليبه النابعة من شريعتنا الإسلامية، وواقعنا الإسلامي، وتطلعاتنا المستقبلية.

وأصالة هذا الفكر تبدو في قدرته على تفسير الظواهر التربوية، والعلاقات الإنسانية، وتتبُّع نتائجها، والتنبؤ على أساسها. وتتمثل أصالته كذلك في شجبه أنماط الفكْر الأخرى القائمة على المساومات الهامشية، والحلول الوسطية، والنزاعات الخرافية، والاتجاهات الميتافيزيقية، كما أن أغراض هذا الفكر تستهدف المحافظة على تراثنا الروحي، ودعم مبادئ وأهداف المجتمع الإسلامي، واستيعاب روح العصر ومطالبه في القدرة على التغيير والتجديد والابتكار والارتقاء.

أما «الفكر التربوي الإسلامي» فهو: «إسهامات قدِّمت من مفكرين إسلاميين لخدمة التربية والتعليم على مر العصور الإسلامية إلى اليوم».. هذه الإسهامات أصبح تأثيرها محدوداً نتيجة التحدي الذي أوجده دخول التغريب الثقافي، والعلوم الاجتماعيّة الغربية، في ثقافات البلاد الإسلاميّة، وجمود هذه الإسهامات عن إحداث «التجديد» في ميدان التربية في المجتمعات الإسلاميّة، وتوجيه العملية التربوية فيها لتكون مؤدية دورها في المجتمع، قادرة على إحياء القيم الإسلاميّة فيه، بعيدة عن تأثير القيم المتعارضة مع الإسلام، ليكون الإسلام ديناً

ومنهجاً للحياة، والعاملَ الأساس في بناء هذه المجتمعات وحركتها، ليحقق في هذه المجتمعات انتماءها للإسلام، وتنتهي حالة اغترابها عن دينها وحضارتها وقيمها.

وقد كثر نتاج المفكّرين التربويين الإسلاميين في بداية تشكّل الفكر التربوي الإسلامي، للتأكيد على فرضيّات أساسيّة قد تعدُّ بمنزلة المرتكزات الأساسيّة لنظرية أو نظريّات إسلاميّة تربويّة، لذلك قد تعدُّ عموميّات أو مسلّمات لجهد فكري مستقبلي أكثر تخصّصاً وملاءمة. وكثير من هذه الفرضيّات مقتبس من التصور الإسلامي العام عن الوجود والكون والحياة والمجتمع، ولا يتصل بالتّربية وحدها.

ويمكن أن نذكر من هذه الأسس العامة: مفهوم ربانية المجتمع الإسلامي، تكامل خلق الإنسان وجوانب شخصيته، تناسق الخلق في آيات الكون، تكامل الأنظمة الإسلاميّة ومبادئ الشّريعة، كمال الدّين الإسلامي وختمه لرسالات الأنبياء، شمول مفهوم الإيمان وعمق تأثيره في النفس والمجتمع، مفهوم العبادة الشّامل، تجديد أمر الدّين بتجدد متغيرات الحياة، شمول الرّسالة وصلاحيتها المستمرة بتغيرات الزمان والمكان، وتغيّر ما في الواقع بتغيير ما في الأنفس.

ومن الفرضيات التي بُني عليها الفكر التربوي الإسلامي ما هو متعلّق بالنظرة للواقع والمجتمع في الحقبة الأخيرة، مثل: ضرورة بناء نهضة أمة الإسلام على أساس قويم بدينها، وأن تعيد صياغة ثقافتها بما يوافق أسس بنائها ويمنحها القدرة على الانطلاق من حضارتها. ومعظم مفكّري الإسلام لا يرون أن الثقافة الغربية

تصلح أساساً للنهضة قبل أن تتمكن المجتمعات الإسلاميّة من نقدها وتعديلها حسب ثقافتها الإسلاميّة الأصيلة.

وخلال عقود من الزمن قدَّم الفكر التربوي الإسلامي إسهامات واسعة، ربما إلى درجة يصعب معها الإحاطة بمعالمه وأساسياته الرئيسة، ويزيد من هذه الصعوبة أن هذا الفكر بعد أن أُقرت مسلماته أو معظمها، لم تكن المساهمات التي بُنيت عليها متجهة في اتجاه واحد، على كثرة ما فيها من اجتهاد وإبداع.

محاور إسهامات الفكر التربوي:

ويمكن أن نلاحظ في مساهمات الفكر التربوي الإسلامي الواسعة أربعة محاور تركّزت حولها المعالجات، وهي:

المحور الأول: تركز حول نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في سبيل معرفة ما تؤكّد عليه من قيم، وما تقدمه من معلومات وتصورات عن الإنسان والكون والحياة، وما تحويه من مناهج للبحث والتطبيق.

و**المحور الثاني**: تركز حول الإنسان، والمجتمع الإسلامي المنشود، بهدف بناء تصورات عن الإنسان وتكوينه، وسلوكه الفردي والاجتماعي، والسنن التي تحكم حركة المجتمعات.

أما المحور الثالث: فدار حول التاريخ والتراث لأجل معرفة واقع التّربية في مجتمعات المسلمين السابقة وسير السلف الصالح، باستخلاص الفكر النظري والواقع العملي، أو بمعنى آخر؛ استخلاص ما فهمه الأشخاص المربون وما كان يجري في واقع تربيتهم، بهدف معرفة أثر النصوص والمبادئ العامة في بناء تلك المجتمعات، وما ساد فيها من فكر وواقع ومعرفة عناصر وعلاقات أنظمته

التّعليمية، في محاولة لجعله مصدراً لواقعنا الحالي، وتجربةً يمكن أن يُقتبس منها.

وتركز المحور الرابع والأخير حول الواقع المعاصر بما فيه من عناصر موافقة أو مخالفة للإسلام، بقصد تقويم هذا الواقع وملاحظة دور الثقافة الإسلاميّة أو الغربية فيه، ومعرفة كيف يمكن للمسلمين أن يتعاملوا معه، واستكشاف الأساليب الممكنة لتغييره وتقريبه من الإسلام.

ومصادر المعرفة في التصور الإسلامي نوعان:

أولهما: الوحي في الجوانب التي يعلم الله ﷻ أن الإنسان لا يهتدي فيها إلى الحقّ من تلقاء نفسه، والتي لا تستقيم فيها الحياة على وجهها السليم إلا بمفردات ثابتة من عند الله المحيط بكل شيء علماً.

وثانيهما: العقل البشري وأدواته في تفاعله مع الكون المادي نظراً وتأملاً وتجربةً وتطبيقاً في الأمور التي تركها الله العليم الحكيم، لاجتهاد هذا العقل وتجاربه، بشرط الالتزام التام فيها بالأصول العامة الواردة في شريعة الله المنزَّلة، بحيث لا تحل حراماً ولا تحرِّم حلالاً، ولا تؤدي إلى الشّر والضرر والفساد في الأرض.

ولكن كيف يمكن تجديد الفكر التربوي الإسلامي؟

كل ما في الكون يتجدد ويتغير باستمرار، تلك سنة الله في خلقه، والكائنات الحية تتجدد وتتغير وفق تغير الظروف الطبيعية من الخارج، ووفق فاعلية الجسم والفكر من الداخل. ولما كان الفكر التربوي في العالم الإسلامي نتاجاً لحيوية الإنسان المسلم؛ فإنه يخضع بدوره للناموس العام، ناموس التطور

والتجدد.. والمجتمعات الإسلامية تتطور وتتجدد كلما دأبت على تجديد فكرها التربوي، وترقد وتتخلف كلما توقف وتخلف فكرها التربوي.

وتجديد هذا الفكر لا يعني هدم أو مسخ ما هو قائم، بل يعني إدامته مع إصلاح ما انتابه من خلل، وإضافة ما تتطلبه الظروف والحاجات الجديدة من إضافات، وحذف ما أصبح غير متوافق مع المستجدات. وإن الدعوة إلى التجديد ليست بدعة، بل هي جزء من تعاليم الإسلام الخالدة التي وردت في الحديث الشريف: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَن يجدد لها أمر دينها».

وتجديد الفكر التربوي الإسلامي يتطلب إعادة النظر في شؤون التربية الإسلامية كما تمارس اليوم في البيت، وفي المدرسة، وفي البيئة المحيطة، وما تحويه من مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. فقد تقدم المسلمون يومَ كان الفكر التربوي الإسلامي حياً نامياً متجدداً، وحمل المسلمون يومَ ركد الفكر التربوي الإسلامي وساد العالـمَ الإسلامي الجمودُ الفكري والتعصب والتشرذم. فإذا أردنا اليوم تحقيق النهضة الشاملة والارتقاء؛ لا بد أن نفكر في تجديد التربية، لكن! ما التجديد الذي نريده للفكر التربوي الإسلامي، وما مصدره؟

إن التجديد الذي يتطلبه الفكر التربوي الإسلامي ينبع من دراسة جديدة متعمِّقة وشاملة للقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتراثنا التربوي الإسلامي، ومشكلاتنا الإسلامية المعاصرة، وآمالنا وطموحاتنا المستقبلية. كما يتطلب دراسة التطورات العلمية والتقنيات، وما يرافقها من تنظيمات تربوية واقتصادية واجتماعية في البلاد المتقدمة.. وفي ضوء هذه الدراسات نعيد النظر

في أهدافنا التربوية، ومحتويات برامجنا التربوية والتعليمية، والوسائل والأساليب المتبعة لتحقيق الأهداف، فنعيد صياغتها من جديد.

ويدق هذا الناقوس محذراً الدكتورُ بدر حمد المحيلبي[1]، محاولاً «إعطاء فكرة شافية وافية عن أبرز ملامح تطور الفكر التربوي الإسلامي»، إذ عرض صورة مبسطة عن الفكر التربوي الإسلامي بصورة عامة، وبيَّن أهم معالم الفكر التربوي في الإسلام وتاريخه، وتطرق إلى مفهوم التربية الإسلامية وأهدافها وأساليبها، وأبرز الاتجاهات والآراء في تعليم المرأة في الفكر الإسلامي، ثم أهم المؤسسات التعليمية في الفكر الإسلامي، واختتم بعرض موجز لبعض أعلام الفكر الإسلامي القديم والمعاصر، وبيان لأهم فِكَرهم واتجاهاتهم في بعض قضايا التربية المهمة.

فجاء الفصل الأول متناولاً أبرز ملامح الفكر التربوي في عصر ما قبل الإسلام، ولتكتمل الصورة عرض مظاهر التغيير التي أحدثها الإسلام، وموقفه الإيجابي من طلب العلم، والسعي وراء المعرفة، وتطور هذا الفكر؛ مؤكداً دور حركة الترجمة والنقل من الحضارات الأخرى في تطور العلوم التربوية العربية الإسلامية، انتهاءً بسقوط بغداد على يد المغول، وانهيار الخلافة العباسية، وانهيار النظام الإسلامي معها، فقد ترتب على هذا الانهيار فترة اضطرابات سياسية، وصراعات عسكرية؛ انعكست على الحركة التعليمية العربية، فشهدت بعض الركود، حتى بدأ العالم الإسلامي ينهض من جديد. واختتم الفصل بأثر الانفتاح الثقافي العربي على العالم الغربي الأوروبي في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر،

(١) في كتابه (الفكر التربوي الإسلامي)، الصادر عن مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع حديثاً.

ودوره في ظهور تآخٍ ثقافي وفكري جديد شكلته تيارات التغريب والتحديث، فظهر تيار تجديدي إسلامي تصدى للاتجاه الفكري التغريبي العَلماني والليبرالي.

وفي الفصل الثاني عَرَّف مفهوم التربية الإسلامية بأنها «عملية تنمية شاملة للفرد في جميع النواحي، وذلك لإعداد الإنسان الصالح، مستمدةً من القرآن والسنة النبوية، وتمارسها الأمة الإسلامية»، مشيراً إلى أن التربية الإسلامية تتميز بأنها ربانية المرجع، ومستمرة، وليست روحية فقط، ولا مادية فقط، بل تجمع بينهما بتوازن نسبي وشامل، ولم يفُتْه توضيح أهداف التربية الإسلامية من خلال بعض آراء المفكرين. وكذلك تناول أساليب التربية الإسلامية: القدوة، الثواب والعقاب، القصة، الأمثال؛ كأدوات لمساعدة الفرد على اكتساب المهارات والعادات والميول والقيم المرغوب فيها.

وتناول في الفصل الثالث «تعليم المرأة في الفكر الإسلامي»، فالإسلام رفع من مكانة المرأة وساوى بينها وبين الرجل في العبادات، والواجبات، والمسؤوليات، وكفل لها حقوقها؛ لأنها هي «الأساس الأول في بناء البيت، ومحور الفلك الأسري». فالمرأة في منظور التربية الإسلامية تحتل مكانة عالية؛ لأنها مربية الأجيال، وهي الأسرة، ومن ثم هي المجتمع كله. ولقد كانت المرأة قبل الإسلام في المجتمعات الغربية غارقةً في بحار الجهل، وعانت كثيراً في سبيل الوصول لحقوقها، بعد ما كانت تُحسب في عداد الممتلكات، ولا ترث أباها. ولم تعطِ الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر المرأة حقوقها كاملة واعتبرتها قاصرة، رغم مبادئها: الحرية والإخاء والمساواة.

واختتم بأن الإسلام حضَّ على تعليم المرأة جميع العلوم، الدينية وغير الدينية، وشجع على ذلك، وحث عليه؛ بشرط ألا يؤثر ذلك على دينها وأخلاقها، ولا على

وظيفتها الأساسية كأم ومربية، وقدم الأمثلة الكثيرة لنساء متعلمات لعبن دوراً كبيراً في الفكر الإسلامي على مدار العصور التاريخية المتطورة.

وفي الفصل الرابع، شرح دور «المؤسسات التعليمية في الإسلام»، فأوضح أن الإسلام قد شجع على العلم، واعتبر العالِم أفضل من العابد، وعلى هذا تعددت وتنوعت مؤسسات التعليم في الإسلام، فذكر منها: الأسرة، الكتاتيب، المساجد، المدارس، المكتبات، وحوانيت الوراقين. وخلص في النهاية إلى أن السلف من المسلمين قدَّروا العلم والكتاب حق قدره، فنهضوا؛ أما الآن «فلم يعد المسلمون يتمتعون بتلك الروح والهمة العالية في طلب العلم واقتناء الكتاب، بل نجد الغرب يسارع في طلب الكتاب. وأصبح حال الكتاب في ديار الإسلام غريباً وحيداً.. وقد كلف هذا أمة الإسلام الكثير والكثير، وأصبحنا أمة مستقبِلة بعدما كنّا أمة مرسلة، وأمة مستهلكة بعدما كنّا أمة منتجة».

وفي الفصل الخامس، قدَّم نماذج «من أعلام الفكر التربوي الإسلامي»: الإمام أبو حامد الغزالي (١٠٥٩ ـ ١١١١م)، ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م)، الشيخ عبد العزيز الرشيد البداح (١٨٨٧ ـ ١٩٣٨م)، الشيخ يوسف بن عيسى القناعي (١٨٧٨ ـ ١٩٧٣م)، الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م)، الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م)، و«بنت الشاطئ» عائشة عبد الرحمن (١٩١٣ ـ ١٩٩٨م). فعرض لحياتهم ودورهم في النهوض بالفكر التربوي الإسلامي، وآرائهم في المسائل التربوية الإسلامية.

واختتم الفصل السادس والأخير بـ «قضايا تربوية معاصرة»، فبسط الحديث عن فلسفة التربية الأخلاقية في الإسلام بأنها تتبع منهجاً وسطاً من أجل تحقيق التكامل الأخلاقي لدى المتلقي شكلاً ومضموناً، وأوضح أن التربية الأخلاقية

الإسلامية تهدف إلى تربية ضمير الإنسان المسلم على ممارسة السلوك، الذي يحقق الأخلاق والإنسانية والاجتماعية؛ اقتداءً بالرسول المربي ﷺ، الذي كان خُلقه القرآن في أقواله وأفعاله. وفي إطار تناوله للقضايا التربوية المعاصرة، تناول العولمة: ماهيتها، نشوءها، تطورها التاريخي، أدواتها، ومجالات تأثيرها السياسي والاقتصادي والعلمي والاجتماعي والثقافي، وهل هناك بينها وبين الفكر الإسلامي صدام أم توافق، وتناول كذلك «النفعية» كتيار فلسفي تربوي، فبسط المقصود بالكلمة، ودورها في التربية، وأثرها في الاقتصاد والمجتمع.

وفي النهاية قدَّم نموذجاً من محاولات التجديد في الفكر الإسلامي، وهو ما يعرف بـ «مشروع إسلامية المعرفة»، والذي ظهر رداً على تحديات الفلسفات العَلمانية التي تحدَّت التعليم الإسلامي، والفهم الإسلامي للعالم المعاصر، وتناول أهدافه ووسائله لتحقيقها، والأساس الفكري الإسلامي له. واختتم بالنقد الموجه إليه بأنه لا يزال في طور الإعداد، مشيراً إلى أن هذا النقد ناتج عن «الضعف التراكمي الذي ابتلي به بعض المفكرين، وقلة الاطلاع على المستجدات، خصوصاً أن هذا المشروع نشأ في أمريكا وتبنّاه مفكرون عاشوا حياتهم في الغرب»[1].

ثالثاً: الهدف العام للتربية الإسلامية:

ويتمثل الهدف العام للتربية الإسلامية في تحقيق معنى العبودية لله تعالى؛ انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالهدف الأساسي لوجود الإنسان في الكون هو عبادة الله، والخضوع له، وتعمير الكون؛ بوصفه خليفة الله في أرضه.

---

(١) مجلة البيان، العدد ٣٠٢، شوال ١٤٣٣هـ، أغسطس ٢٠١٢م.

والعبودية لله تعالى لا تقتصر على مجرد أداء شعائر ومناسك معينة: كالصلاة، والصيام، والحج مثلاً، وإنما هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فالإنسان الذي يريد أن يتحقق فيه معنى العبودية، هو الذي يُخضع أموره كلها لما يحبه الله تعالى ويرضاه، سواء في ذلك ما ينتمي إلى مجال الاعتقادات، أو الأقوال، أو الأفعال؛ فهو يكيف حياته وسلوكه جميعاً لهداية الله وشرعه؛ فلا يفتقده الله حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه، وإنما يلتزم بأوامره تعالى فيأتي منها ما استطاع، وينـزجر عن نواهيه سبحانه فلا يقربها؛ تصديقاً لقوله ﷺ: «إذا نَهيتُكم عن شيء فاجتنبوهُ وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتُم»[1]؛ فالمسلم دائماً إذا أمره الله تعالى أو نهاه، أو أحل له، أو حرم عليه؛ كان موقفه في ذلك كله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وهذا هو الهدف العام الذي تعمل التربية الإسلامية على تحقيقه.

رابعاً: الأهداف الفرعية للتربية الإسلامية[2]:

إن تحقيق الهدف العام للتربية الإسلامية ـ متمثلاً في العبودية الحقة لله تعالى ـ يتطلب تحقيق أهداف فرعية كثيرة، منها:

١ ـ التنشئة العقدية الصحيحة لأبناء المجتمع المسلم؛ لإعداد الإنسان الصالح الذي يعبد الله ﷻ على هدى وبصيرة.

٢ ـ تَخلُّق الفرد في المجتمع المسلم بالأخلاق الحميدة: من صدق، وأمانة، وإخلاص... إلخ؛ مقتدياً في ذلك برسول الله ﷺ، الذي شهد له ربه سبحانه

---

(١) مجموع الفتاوى برقم ٦٣٦٥٠، وهو صحيح.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبد الرحمن النحلاوي، ص٥٦ ـ ٥٧.

بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعملاً بقوله ﷺ: «إنما بُعِثتُ؛ لأتمم مكارم الأخلاق»[1]؛ وبذلك يمكن تهيئة المجتمع المسلم للقيام بمهمة الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٣ ـ تنمية الشعور الجماعي لأفراد المجتمع المسلم؛ بحيث يرسخ لدى الفرد الشعور بالانتماء إلى مجتمعه؛ فيهتم بقضاياه وهمومه، ويرتبط بإخوانه؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وبذلك تتأكد روابط الأُخوَّة الإيمانية الصادقة بين أبناء الأمة المسلمة.

٤ ـ تكوين الفرد المتزن نفسيّاً وعاطفيّاً، وذلك بحسن التوجيه وحسن الحوار مع الأطفال، ومعالجة مشاكلهم النفسية... إلخ؛ ما يساعد على تكوين شخص فاعل، وعضو نافع لمجتمعه.

٥ ـ صقل مواهب النشء ورعايتها؛ لتكوين الفرد المبدع، الذي يتمتع بالمواهب والملكات التي باتت ضرورة ملحّة لتقدم المجتمعات في الوقت الحاضر، وذلك بتنمية قدرات النشء على التفكير الابتكاري، ووضع الحلول للمشكلات المختلفة، وتنمية قدراتهم على التركيز والتخيل والتعبير، واستثارة الذهن بالأسئلة والمناقشات، وتوجيه الأطفال إلى الأمور التي قد تكون أكبر من سنهم، ورفع همتهم، وتنظيم تفكيرهم.

٦ ـ تكوين الفرد الصحيح جسميّاً وبدنيّاً، الذي يستطيع القيام بدوره وواجبه في عمارة الأرض واستثمار خيراتها، والقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض ومهامه التي جعله الله خليفته فيها؛ عملاً بقوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله

---

(١) مجمع الزوائد برقم ٩/١٨.

من المؤمن الضعيف»[1]؛ ولهذا شجع الإسلام على أمور تقوي الجسم: كالرمي، والفروسية، والسباحة، وكان الصحابة يتبارَوْن ويتمرنون على رمي النبل، وصارع الرسولُ ﷺ ركانة بن عبد يزيد فصرعه ﷺ، وكان ذلك سبباً في إسلامه.

خامساً: مصادر اشتقاق الأهداف في التربية الإسلامية:

مصادر اشتقاق الأهداف في التربية الإسلامية ثلاثة، هي:

١ ـ **الوحي الإلهي**: المتمثل في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

٢ ـ **المجتمع المسلم**: الذي يجب التعرف على احتياجاته، ومتطلباته، وظروفه، وأحواله المتغيرة؛ لتحديد الأهداف التي تناسبه.

٣ ـ **الفرد المسلم**: الذي يجب التعرف على طبيعته، وميوله، ورغباته، ومواهبه؛ لوضع الأهداف التي تناسب ذلك. ومن هنا كانت الأهداف التربوية الإسلامية تدور حول أربعة مستويات:

الأول: الأهداف التي تدور على مستوى العبودية لله ﷻ أو إخلاص العبودية لله.

الثاني: الأهداف التي تدور على مستوى الفرد؛ لإنشاء شخصية إسلامية ذات مثل أعلى تتصل بالله تعالى.

الثالث: الأهداف التي تدور حول بناء المجتمع الإسلامي، أو بناء الأمة المؤمنة.

الرابع: الأهداف التي تدور حول تحقيق المنافع الدينية والدنيوية.

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٦٤.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الباب الأول: الأساليب التربوية في القرآن ومكانة سورة لقمان منها:

أولاً: تعريف القرآن الكريم.

ثانياً: الأساليب التربوية في القرآن.

ثالثاً: مكانة سورة لقمان من أساليب التربية في القرآن.

الباب الثاني: أساليب التربية في سورة لقمان:

أولاً: محاور تربية لقمان.

ثانياً: التربية بالموعظة أسلوب لقمان الحكيم.

الباب الأول
الأساليب التربوية في القرآن ومكانة سورة لقمان منها

لقد اهتم القرآن الكريم بالتربية اهتماماً بالغاً وبوّأها مكانة عالية؛ إذ جعلها من أولويات هذا الدين الكريم التي بها تقوم الحياة وتستقيم الأمور وتسعد البشرية، ولذلك حث الشرع الحنيف على الاهتمام بها من خلال جملة من الآيات الكريمات الدالة على ذلك.

ولضمان تربية نافعة وتحقيق سليم لها، سلك القرآن الكريم منهجاً تربوياً فعالاً تتسم فيه العناصر التعليمية بالتناغم والتنوع، كما وظف أحسنها وأجودها في سبيل بناء الإنسان المسلم الصالح المصلح؛ الذي يحصل الفلاح في الدارين.

أولاً: تعريف القرآن الكريم:

١ ـ تعريف القرآن الكريم لغةً: وردت عدة أقوال في معنى القرآن في اللغة: فهو مصدر مشتق من قرأ «يقال قرأ قراءة وقرآناً، والمصدر يدور على الجمع والضم، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨]، ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علماً»[(١)]. قال أبو إسحاق النحوي: يُسمى كلام الله تعالى الذي أَنزله على نبيه ﷺ؛ كتاباً وقُرْآناً وفُرْقاناً. ومعنى

(١) ابن منظور، ١٩٧٧، ص٦٩.

القُرآن: معنى الجمع، وسمي قُرْآناً؛ لأَنه يجمع السور فيَضُمُّها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾، أَي جَمْعَه وقِراءَته.

٢ ـ تعريف القرآن اصطلاحاً: تعددت آراء العلماء فيه، وذلك بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن، فقيل: «القرآن: هو كلام الله العزيز، والنص الإلهي المنزَّل بواسطة الوحي على رسول الإسلام وخاتم النبيين محمد بن عبد الله بلغة العرب ولهجة قريش، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبَّد بتلاوته المعجِز ولو بسورة منه، وهو المعجزة الإلهية الخالدة التي زوَّد الله تعالى بها رسوله المصطفى، وهو الميراث الإلهي العظيم، والمصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلاميتين»[١].

ثانياً: الأساليب التربوية في القرآن:

وتعد الأساليب التربوية من أهم عناصر العملية التعليمية التي اعتنى بها الذكر الحكيم، لما لها من أهمية في السيرورة التعليمية للدرس، فبحسن توظيفها تتحقق الأهداف التربوية بشكل سلس ويتيسر التواصل بين المعلم والمتعلم.

وللإشارة، فإن الغاية المرجوة من استعمال الأساليب التربوية والتعليمية تصب في الغاية الكبرى للعلم عموماً، والتي تتجسد حسب التصور الإسلامي في معرفة الخالق والمخلوق والكون.

الأساليب التربوية في القرآن الكريم:

وإن الأساليب التربوية في القرآن الكريم كثيرة متعددة، فمنها أسلوب الحوار، والقصة، والعبرة، والقدوة، وضرب الأمثال، والتربية بالثواب والعقاب، والتدرج،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: ج١، ص٥٨.

وإقامة الحجة، وغير ذلك من الأساليب التربوية التي تفوق أحدث النظم التربوية في عالمنا المعاصر. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ **التربية بالحوار:** وهو من الأساليب الرائعة التي أرسى القرآن أصولها. وأثر هذا الأسلوب في النفس عظيم، ولنا في قصة موسى عليه السلام والخضر أعظم الأمثلة على ذلك، لأنها جمعت بين أسلوبي القصة والعبرة، وأسلوب الحوار، فهي قصة تروّح عن النفس، وتغرس قيماً تربوية شتى، كالرحمة بالضعيف، وفطنة المعلم وكياسته. وهي عبرة لطالب العلم، فهي تدعوه إلى الصبر على طلب العلم، وهي أسلوب حوار راقٍ لا نظير له، قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٧٠].

٢ ـ **التربية بإقامة الحجة:** أنزل الله القرآن الكريم على رسوله ﷺ، وتحدى به أرباب البلاغة وأقحاح العرب، فقهرت بلاغة القرآن بلاغتهم وأعجزت فصاحته فصاحتهم، كما تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وفي ذلك ما فيه من إقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وما زال التحدي قائماً، فلم يكن التحدي قاصراً على أهل مكة فحسب، بل هو لكل مكذب مفتر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ ـ **التربية بضرب الأمثال:** وأسلوب ضرب الأمثال من أوقع الأساليب التربوية في النفس، لما يعقبه من تبصّر واتعاظ وتدبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، فهذا مثل متصل بذكر المشركين، وكان رسول الله ﷺ قد دعا على مشركي قريش فقال: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[(١)]. فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاماً ففرق فيهم. وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد؛ أي أنها مع ما لها من جوار بيت الله وعمارة مسجده الحرام، لما كفر أهلها أصابهم القحط، فكيف بغيرها من القرى؟!

٤ ـ **أسلوب النصيحة والحضّ:** النصيحة: الوعظ بودٍّ وإخلاص، والحضُّ: الحمل على الشيء والإغراء به، والحث عليه. والقرآن الكريم حرص على النصيحة، فهي أسلوب يدفع إلى فعل الخير، وركوب الطريق الصحيح، فعلاً كان أم تفكيراً، بطريقة تدع المنصوح راغباً دون شعور بالمساءة.

وللنصيحة والحضّ عليها أساليب عدة، سلكها القرآن، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ **الشرط**: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. فالقرآن في هاتين الآيتين الكريمتين ينبه إلى أن النفس العظيمة تطلب الشيء النفيس الباقي، وذلك باللجوء إلى الله تعالى وحده سبحانه،

---

(١) رواه البخاري: ٩٥٦٣.

والإيمان به، وطلب الدار الآخرة. ونرى موسى عليه السلام ينصح قومه بالتوكل على الله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وعلى هذا الأساس نرى الله سبحانه وتعالى يحضّ نبيه الكريم، على التوكل على الله، والاكتفاء به حسيباً ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وأسلوب الشرط في إسداء النصيحة والحضّ على الخير كثير في القرآن الكريم.

٢ ـ **لولا التحضيضيّة**: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

فهلاّ... ولكنْ كان أولئك بعيدين عن التعقل والفهم، ولم يكن منهم أولو ألباب وعقول.

وفي حديث الإفك، حضٌّ على التفكير للوصول إلى معرفة الحقيقة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، وحضهم على التزام شرع الله في الوصول إلى الحق، وعودة إلى أول السورة نجد أنه ينبغي المجيء بأربعة شهداء لإثبات زنى المرأة: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

٣ ـ **النداء والأمر والنهي**: وقد تجتمع في كثير من الآيات، بل في أكثرها، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

فاليهود يقصدون من كلمة «راعنا» المسبّة والشتيمة، كما أنها قد توهم الجفاء، أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودّة والتعظيم.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢٧ ـ ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ ـ ٢١].

٤ ـ ويجتمع النداء والنهي في القرآن كثيراً: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ...﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٥ ـ ويجتمع النداء والأمر أيضاً: ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ...﴾ [التحريم: ٦].

٦ ـ ونرى المقارنة والاستفهام مجتمعَيْن: كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وكأنه سبحانه يقول لأهل العقول: تذكروا وعوا...

ومنها الاستفهام بـ (هل)، كقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

ومنها الاستفهام بـ (مَنْ)، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ...﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ومنها الاستفهام بـ (الهمزة)، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤].

٧ ـ **وقد نجد الأمر وحده،** كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٨ ـ **وقد نرى النهي والأمر معاً،** كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

٩ ـ **الإخبار:** في قصة السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت: نجد الفِكَر التالية التي يسمعها الرجل العاقل اللبيب فيمتنع أن يكون مثل أصحابها:

أ ـ نبذ فريق من الذين أوتوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ب ـ جاءهم الحق، فتناسوه كأنهم لا يعلمون.

ج ـ اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان.

د ـ لم يكفر سليمان، والشياطين كفروا.

هـ ـ المتعامل بالسحر ما له في الآخرة من خلاق.

فكان هذا الإخبار نصيحة وحضاً على التزام الطريق الصحيح.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وكذلك الإخبار في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

١٠ ـ **الوصية**: وهي أسلوب رفيع في النصيحة والحضّ عليها. وقد ذكرت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة في صيغ عديدة فيها الأدب العالي والأخلاق الرفيعة، فمن أمثلتها:

أ ـ ما وصى به الأنبياء أولادهم في التزام التوحيد. قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ب ـ ما وصّى به الله تعالى أولي العزم من الرسل حين شرع لهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣].

ج ـ وفي ثلاث آيات من سورة الأنعام نجد وصايا متتالية، مصابيحَ هداية تنير للسالكين دروب الهداية، وسبل النجاة، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾:

١ ـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١].

٢ ـ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

٣ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٤ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٥ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٦ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٨ ـ ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٩ ـ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

١٠ ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأساليب النصح في القرآن الكريم كثيرة، كثيرة... بحسب اللبيب أن يراجع الآيات الكريمة بتفحص وإمعان؛ ليجد فيها ما يساعده على الوصول إلى قلب السامع والمخاطب...

ثالثاً: مكانة سورة لقمان من أساليب التربية في القرآن:

كما علمنا من قبل أن سورة لقمان هي من السّور المكيّة، وقد نَزلت هذه السّورة المباركة بعد سورة الصّافات، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى قصة لقمان مع ابنه كما تحدّثت بها الآيات الكريمة، ولقمان هو رجلٌ حكيمٌ صالحٌ كان يدعو ابنه ويوصيه بمكارم الأخلاق. وكونها سورة مكية؛ فقد تحدّثت الآيات الأولى عن صفات المؤمن في تقربه لله تعالى، وفي موضعٍ آخر نزلت في التهديد بالعذاب من الاستهزاء بالقرآن الكريم وعدم الاستماع إليه، وخصوصاً التاجر الذي كان يجمع أحاديث الفرس والعجم ليُضِلّ الآخرين عن الاستماع للقرآن الكريم، وفيها جزءٌ مهمٌّ وهو وصايا لقمان لابنه؛ وصايا لقمان لابنه هي وصايا من الله تعالى للمسلمين للتقيد بها وتطبيقها.

أساليب الأمر في سورة لقمان:

قال الله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى

ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ [الآيات: ١٢ ـ ١٩].

دلالات استخدام أسلوب الأمر في الآيات الكريمة السابقة:

يظهر أسلوب الأمر في فعل الأمر وحرف النهي (لا) في قصة لقمان مع ابنه، وأسلوب الأمر يظهر فيجزم الفعل الذي يجب القيام به، ومن هنا نستخلص ما يلي:

ـ يوجد فعل الأمر (اشكر) كما هو واضح في الآية الأولى؛ وهو أسلوب أمر به الله تعالى لقمان، وتذكره بأنْ يشكر الله تعالى على ما هو عليه، وعلى ما آتاه من حكمةٍ تُعينه في العبادة وأمور الحياة.

ـ في الآية الثانية جاء حرف (لا) الناهية، وهو حرف نهي وجزم دخل على الفعل المضارع تشرك (لا تُشرِكْ)، وفيه أمر لقمان ابنه ونهاه بحزم بأن لا يشرك بالله تعالى لما فيه ظلم لنفسه وعقاب من الله تعالى.

ـ وصّاه ببرّ الوالدين، وذكّره بتعب أمه وحمله في بطنها، وفي الأيام التي قضياها في تربيته؛ فلهذا يجب مصاحبتهما في الدنيا، ونلاحظ ذلك من خلال (لا) الناهية التي دخلت على الفعل المضارع (تُطعْهما)، وفعل الأمر (صاحبْهما)، وفي هذا تذكير عظيم للمسلم بفضلِ الوالدين، ولكنْ يجب طاعتهما في المعروف وعدم الشرك بالله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ـ يظهر فعل الأمر (أقمِ الصلاة) وهنا أسلوبُ أمرٍ واضح في إقامة الصلاة، وفعل الأمر (مُرْ) في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ (اصبر على ما أصابك): ظهر أسلوب الأمر من خلال فعل الأمر (اصبر)، وهو الصّبر على القَدر والإيمان به، وعدم المشي بتكبّر من خلال أسلوب الأمر في (لا) الناهية وفعل المضارع (تمشي) (لا تمشِ)، والاعتدال في المشي من خلال فعل الأمر (اقصدْ في مشيك)، وعدم بغض الناس.

ـ أمره بغض الصوت وخفضه من خلال فعل الأمر (اغضض)؛ لأنّ من رفع الصوت يكون كالحمار الذي ينهق، وصوت الحمار من الأصوات التي أنكرها الله تعالى.

وفي الآية (٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أَمَر الله تعالى الناس كافةً بالتقوى ومخافةِ الله ﷻ، وتذكيرهم بيوم القيامة من خلال فعل الأمر (اتقوا) و(اخشوا).

❋❋❋

الباب الثاني
أساليب التربية في سورة لقمان

سورة لقمان سورة تربية الأبناء، نفهم هدف السورة من اسمها، الذي يدل على تربية لقمان لابنه ووصيته التي جاءت بها السورة، فهي تحمل في آياتها أساليب رائعة للتربية على منهج الله تعالى، تربية شاملة لكل ما يحتاجه الأبناء في دينهم ودنياهم. **هذه التربية تشمل المحاور التالية:**

١ ـ توحيد الله تعالى.

٢ ـ بر الوالدين.

٣ ـ أهمية العبادة والإيجابية.

٤ ـ فهم حقيقة الدنيا.

٥ ـ الذوق والأدب.

٦ ـ التخطيط للحياة

سبحان الله.. كل هذا موجود في السورة؟ كل هذا في (٣٤) آية فقط؟ هذه السورة لا بدّ أن تدرس في مدارسنا، وأن يقرأها أبناؤنا ويحفظوها لينشؤوا على التوجيهات التي ربى لقمان ابنه عليها، وليس هذا فحسب، بل إن الآباء يجب أن يتعلموها قبل الأبناء، ليتعرفوا من هذه المدرسة القرآنية، مدرسة لقمان، على أصول التربية الإسلامية الدنيوية.

أولاً: محاور تربية لقمان:

١ ـ **عدم الإشراك بالله:** وهذا المحور نراه واضحاً في السورة كلها؛ لأن أول ما يجب أن ننشئ أطفالنا عليه هو توحيد الله تعالى وعدم الشرك به.. فكيف نزرع هذا المعنى في أطفالنا؟ لا بدّ أن نريهم ملك الله في الكون، ونخرج معهم في النزهات والرحلات، حتى يروا المناظر الطبيعية، فيتعلموا منها إتقان الله في خلقه، ويتعرفوا على عظمة الخالق ﷻ من عظم مخلوقاته.. انظر كيف ربى لقمان ابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] فبدأ بالدرس النظري في التحذير الشديد من الشرك، ثم بعد آيتين انتقل للدرس العملي: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦]، ومن روعة هذه الآية أنها ضربت مثلاً يفهمه الأولاد الصغار، بينما تحمل معنى عظيماً يلائم الكبار أيضاً، ويجعلهم يشعرون بقدرة الله تعالى وإحاطته وعلمه.

٢ ـ **بر الوالدين، وتعريف الأبناء بفضل الآباء عليهم، حتى يعرفوا معنى الشكر:** شكر الله، وشكر الوالدين ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وحتى عند الأمر ببر الوالدين، يأتي التذكير بعدم الشرك حتى لو كان ذلك طاعة للوالدين، ليعلمنا القرآن أن الأمرين لا ينبغي أن يتعارضا مع بعضهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ [لقمان: ١٥]، وتأتي قاعدة هامة في التوازن بين البر وبين ترك الشرك: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥].

٣ ـ **أهمية العبادة والإيجابية في الحياة:** ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]، فليست التربية أن تؤمّن لأطفالك الطعام والشراب والمسكن والملبس والدواء.. هذه كلها إداريات البيت، والتربية ينبغي أن تنشئ

الأطفال على عبادة الله تعالى، ولا تقتصر على تعليم الأطفال أداء الصلاة، كما يعتقد الكثير من الآباء، بل يجب أن نغرس في قلوبهم الإيجابية في مجتمعهم وبين إخوانهم، ليأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويأخذوا بأيدي الناس للهداية.

٤ ـ **التعريف بحقيقة الدنيا:** فهناك آباء يربّون أبناءهم على الترف والإنفاق، والاعتماد على مال آبائهم، ظناً منهم أنهم يؤمّنون لأولادهم كل ما تتطلبه الحياة، والمطلوب هو تعريف الأبناء بحقيقة الدنيا وسياستها المتقلبة، وأن الدنيا لن تدوم لآبائهم، وأنه لا بدّ للأبناء من الاعتماد على أنفسهم، فيقول لقمان في الآية (١٧) ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ وبالأخص إذا تربى الولد على الإيجابية كما في الآية السابقة.

٥ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فإنه يحتاج كثيراً إلى الأمر بالصبر؛ لأن طريق الإيجابية والدعوة إلى الله مقترن بالمشاكل والصعاب.

٦ ـ الأدب والذوق ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩]، فلا بد من التعامل مع الناس بأدب وذوق حتى في أدق التفاصيل، في المشي والصوت، فلا يرفع المرء خده استعلاءً على الناس، ولا يمشي بالخيلاء بين الناس، بل يقتصد في ذلك ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾، ولا يرفع صوته أكثر مما يحتاج إليه السامع.

٧ ـ **تحديد الهدف في الحياة والتخطيط للمستقبل:** ومن روعة السورة أنها شملت هذا المعنى أيضاً في التربية.. وذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ فهذه الآية قد تكون إتماماً لسلسلة الذوقيات والأخلاق التي تحدثت عنها

السورة، فيكون المعنى أن تمشي على الأرض بوقار ودون أي عجب أو خيلاء، وقد تعني «اقصد في مشيك»: أن تضع قصداً وهدفاً وراءك لخطوة تمشيها، فلا تعيش في الحياة زائداً عليها دون أن يكون لك أي هدف فيها.

والعاطفة بريد التربية؛ إذ نلاحظ في السورة أن هذا الكم من التوجيهات قد غلّفه الأب بالحنان والعاطفة الشديدين، وكأني عندما أقرأ هذه الآيات، أشعر بلقمان، ذلك الرجل الهادئ، الذي يعظ ابنه برقة ويقول له قبل كل موعظة: (يا بُنَيَّ.. بُنَيَّ)، فالسورة تقول للآباء: صاحب أولادك واكسب مودتهم قبل أن تعظهم، كلّمهم أخي المسلم عن نفسك وتجاربك وأخطائك في الحياة، واستعمل الصداقة معهم لتنصحهم قبل استعمال الأمر والنهي بشدة.

هذه السورة هي فعلاً من أروع المناهج التربوية في القرآن.. ولأن توحيد الله هو محور أساس في تربية الأبناء؛ نرى أن السورة ركّزت على التوحيد من خلال العديد من الآيات التي يجب أن نلفت نظر أبنائنا إليها أثناء تربيتنا لهم.

وكما بدأت السورة بتوحيد الله، فإنها ختمت بالتركيز على علم الله وقدرته، وعجز الخلق عن الإحاطة بشيء من غيبه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ٣٤] وهي خمس غيبيات لا يعلمها إلا الله: موعد القيامة، ووقت نزول المطر، ونوع الجنين قبل التكوين، وأحداث المستقبل، ووقت نهاية الأجل ومكان الدفن.

ثانياً: التربية بالموعظة أسلوبُ لقمان الحكيم[1]:

الموعظة، لا تبدو هذه الكلمة محببة إلى الناس أحياناً مع أنها جاءت في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣].

ما الذي جعل هذه الكلمة تفقد بريقها في هذا العصر؟ ولماذا كانت كلمةً رائعةً جداً في نصوص القرآن الكريم وفي السنة المطهرة؟ السبب بسيط... الأنبياء جاؤوا بالكلمة الصادقة، الطغاة جاؤوا بطائرات وصواريخ وقنابل نووية وأقمار صناعية وحاملات طائرات ومدمرات، الطغاة جاؤوا بأسلحة فتاكة فرضوا بها إرادتهم على بقية الشعوب، الأنبياء بماذا جاؤوا؟

بشكل مختصر جاؤوا بمخترعات؟ لا، جاؤوا بالكلمة، لكن بالكلمة الصادقة، بالكلمة التي تعبر عن واقع، بالكلمة التي تعبر عن معاناة، بالكلمة التي تعبر عن تجربة. جاؤوا بكلمة مفعمة بالصدق والإخلاص، جاؤوا بكلمة ليس بينها وبين واقع المتكلم أية مسافة، المسافة منعدمة بين كلمة الواعظ والواقع، لذلك كان لهذه الكلمة شأن كبير، والله ﷻ يقول: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

الأنبياء جاؤوا بالكلمة فقط، ولكن هذه الكلمة مشحونة بكمّ هائل من الصدق، من الإخلاص، من الواقعية، لذلك بالكلمة قلبوا وجه التاريخ، بالكلمة غيروا المفهومات في العالم، بالكلمة نشروا الفضيلة في شتى بقاع الأرض. الآن لعل الناس كفروا بالكلمة أصلاً؛ لأنه يوجد حالات جديدة، الكلام عكس الواقع، فالكلام في واد والواقع في واد، الذي يعظ لا يتعظ، والذي يلقي مواعظه لا يتأثر بها، والذي يأمر لا يأتمر، والذي ينهى لا ينتهي... نشأت حالة يمكن أن

---

(١) التربية الإسلامية ـ تربية الأولاد في الإسلام، د. راتب النابلسي (٣٥ ـ ٥١) ١٩٩٤.

نسميها انفصال شخصية، في موقف معلن وموقف حقيقي، في شيء تفعله في خلوتك لا تفعله في جلوتك، في شيء تكنه في مكنونك لا تبوح به في كلامك. هذه الازدواجية سقطت معها الموعظة، لذلك أي متكلم في أي مكان؛ في الجامعة، في المسجد، في درس، في محاضرة، يقول لك: أنا لا أعظ، وكأنه يستحي أن يعظ، أنا لا أعظكم أنا أتكلم بالواقع، أنا أتكلم بتفكير مفتوح، أنا أتكلم بتفكير مسموع.

فقدان الموعظة مدلولها القرآني في عصر النفاق والازدواجية والكذب والتزوير:

لأن كلمة الموعظة فقدت مدلولها، طبعاً هذه حقيقة، ففي اللغة، الكلمة كالكائن الحي تولد وتنمو وتترعرع وتشيخ وتموت، وقد تولد في حالة وتنتقل إلى حالة، من منكم يطرب لكلمة استعمار؟ لا أحد؛ لأن كلمة استعمار معناها أن قوة غاشمة احتلت أرضاً ونهبت الثروات وقهرت الأمة وأذلتها وجعلت أعزة أهلها أذلة، هذا معنى كلمة استعمار، لكن الله ﷻ قال: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

الاستعمار يعني إعمار الأرض، أرض فيها منشآت، فيها مستشفيات، فيها معاهد، فيها جامعات، فيها طرق، فيها أبنية سكنية جميلة، فيها حدائق، فيها متنزّهات، هذا معنى الاستعمار لغوياً، لكن هذه الكلمة ولدت رائعة، ثم أخذت مفهومات أخرى فأصبحت منفرة.

كذلك كلمة عصابة، العصابة في أصل اللغة: جماعة الخير، أما هي الآن جماعة اللصوص، اختلف المعنى. ما معنى كلمة جرثومة؟ أصل الشيء، شاعر كبير يمدح خليفة عظيماً يقول له: أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب، لو أن

الخليفة فهم معناها كما نفهمها اليوم لقطع رأسه، لكنه قبلها كمديح، فالجرثومة أصل الشيء.

الكلمة أحياناً تولد وتنمو وتترعرع، ثم تهرم وتشيخ وتموت. أنا فيما أرى ـ مع التحفظ ـ كلمة الموعظة كلمة قرآنية ونبوية ورائعة وعظيمة، وهي التي جاء بها الأنبياء، ولكن لأن الناس في هذا العصر، عصر النفاق والازدواجية والكذب والتزوير؛ فقدت الموعظة مدلولها القرآني، لذلك ينبغي أن نعود إلى المدلول القرآني.

أنا أقول لكم أشياء كثيرة، كلمة (إن شاء الله) فقدت مدلولها القرآني، يعني أنت حينما تريد أن لا تأتي تقول إن شاء الله، وحينما تريد أن لا تدفع ما عليك تقول: تعال الخميس أدفع لك إن شاء الله، لكن معناه القرآني ليس كذلك. أنت حينما تكون جازماً في تلبية الدعوة أو في دفع ما عليك تقول إن شاء الله؛ لأن الإنسان لا يملك الغيب. وقد قيل: من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، هذه مقدمة لا بد منها لموضوع الموعظة.

الصدق المطابق بين الأقوال والأفعال يعيد للموعظة ألقها وحيويتها الحقيقية. الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣].

أنا أستمع إلى بعض الناس يعتزون بآبائهم يقول: أبي وعظني مرةً، يا بني! إياك أن تفعل هذا. الموعظة كلمة، لكنها مشحونة بطاقة من الإخلاص والحب، لذلك يجب أن نعيد لها ألقها، أن نعيد لها حيويتها، عن طريق الصدق المطابق بين الأقوال والأفعال، الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال أيضاً: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٤].

إذاً الموعظة يقابلها كلمة النصح، والدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[1]. فقد جمع عليه السلام الدين في كلمة واحدة وهي النصيحة. فأنت تنصح إذا بعت، تنصح إذا اشتريت، تنصح إذا تكلمت، تنصح إذا تحركت، ففي كل حركاتك وسكناتك أنت ناصح أمين، ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ هذه صفة الأنبياء، لذلك من الأسماء المتداولة نصوح صيغة مبالغة لاسم الفاعل نصح، ناصح نصوح.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٦٨].

القدوة أن تفعل شيئاً مطابقاً لقول كهذا أو لدرس، والتلقين أن تلقن الصغير وتعوّده على طاعة الله، أما الموعظة، فهي إلقاء كلام يسمى نصيحة، يسمى توجيهاً، يسمى إرشاداً، يسمى موعظة، تقدم حقائق أو خبرات أو حِكماً إلى من حولك، الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، لذلك يوم القيامة أهل النار وهم في النار يقولون: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

أحياناً كلمة تغير مجرى حياة إنسان، ولكنها كلمة صادقة. والله عندي عشرات القصص حول إنسان سبب هدايته نصيحة صادقة، فالكلمة أمام الناس

---

(١) صحيح مسلم برقم ٥٥، عن تميم الداري.

فضيحة، لكن بينك وبينه نصيحة، إذا تكلمت بكلام صادق مخلص واضح مدلل بالأدلة من قلب حاضر بإخلاص شديد، ربما فعلت هذه النصيحة فعلها الكبير، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

هذه الأمة لماذا فقدت خيريتها؟ هي بقناعتي أمة كأية أمة، وليس لها أي ميزة؛ لأن هؤلاء الذين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، بماذا أجابهم الله؟ قال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

نحن إذا عذبنا بذنوبنا، إذاً نحن أمة كأية أمة شاردة عن الله ﷻ، لذلك قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

هذه الأمة خيريتها من قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

العلماء قالوا: علة خيريتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فإذا آمن الإنسان بالدنيا ولم يؤمن بالآخرة، وإذا آمن الإنسان بزيد أو عبيد ولم يؤمن بالله رب العالمين، ولم يأمر بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر، علة الخيرية انتهت، علة الخيرية أخذت، إذاً فقدنا خيريَّتنا. شيء جميل أن نعتز بهذه الآية، وهناك آيتان كبيرتان: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وأيضاً: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فمعنى ذلك فقدنا خيريتنا لأننا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمة محمد عليه الصلاة والسلام تقسم إلى قسمين؛ أمة التبليغ وأمة الاستجابة:

قسّم العلماء أمة محمد عليه أتم الصلاة والتسليم إلى أمتين: أمة التبليغ وأمة الاستجابة، الأمة التي استجابت هي خير أمة أخرجت للناس، والأمة التي لم تستجب تبلغ، فإما أن تستجيب وإما أن لا تستجيب، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

كيف تتعظ؟ ما سبب اتعاظك؟ إذا كنتَ مؤمناً بالله واليوم الآخر، لذلك الذي لا يتعظ، ولا يتأثر ولا يتحرك، ولا يعبأ، ولا يبالي، لأنه لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، آمَنَ بالدنيا، وآمن بالأشخاص، وآمن بالشركاء، وهذه الصفة الجامعة المانعة لأهل الفساد، لم يؤمن بالله، لكنه آمن بأشخاص أقوياء، لم يؤمن بالآخرة ولكنه آمن بالدنيا فقط.

لا تستغرب أن أباً يجلس مع أولاده ويقدم لهم حقائق، كنت سأقول مواعظ أبدلتُها بحقائق لأنني أشعر أن هذه الكلمة الآن ضعيف تأثيرها، أما حينما تجلس إلى إنسان وتحدثه بحقيقة، وقد يتوقف على فهم الحقيقة سعادته، ونجاحه، وسلامته. إذاً ينبغي أن تعظ ولا تسكت، لذلك قالوا: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

يروى أن أحد حكام مصر دخل في حرب مع دولة، أظنها السودان، قصة قديمة قبل خمسين أو ستين عاماً، والحرب اشتدت، بلغه أنه إذا قُرئ كتاب (صحيح البخاري) ينتصر، فاستدعى شيخ الأزهر وقال له: ماذا نفعل؟ قال: لا بدّ

من قراءة كتاب (صحيح البخاري). فاختار شيخ الأزهر عشرة علماء كبار ليقرؤوا (صحيح البخاري)، فلعل الله ﷻ ينصر المسلمين.

قُرئ (صحيح البخاري)، والمعارك تزداد سوءاً، والخطر يزداد اقتراباً، فجاء الخديوي إلى الأزهر غاضباً فقال: إما أن هذا الكتاب الذي بين أيديكم ليس (صحيح البخاري) وإما أنكم لستم علماء، فقال له أحد الأشخاص: أنت السبب، ما سبق أن إنساناً تجرأ وقال للخديوي أنت السبب، فاضطرب الخديوي وخرج من الأزهر إلى قصره. هؤلاء العلماء الذين سمعوا ما قاله هذا الشخص أقاموا عليه النكير، بمعنى أنك أهلكتنا بهذه الكلمة، ماذا عليك لو بقيت ساكتاً؟ بعد ساعتين استدعي هذا الذي تكلم، وودّعوه على أنه ميت مقتول، فلما استدعاه الخديوي قال له: أعد عليّ ما قلت، قال له: أنت السبب، قال: ولمَ؟ قال: لأن النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري يقول: «مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»[1]. فكّر بالحديث، قال له: ماذا أفعل؟ قال: أغلق أماكن اللهو، أغلق حوانيت بيع الخمر، أغلق الملاهي، قال له: هكذا تريد أوروبا، قال له: ما ذنب علماء الأزهر وما ذنب صحيح البخاري إذاً؟ ويُروى أنه استجاب لما سمع وأطاع، فأُزيل غمُّه.

أنت لا تعرف أحياناً كلمة بأدب، صالحة، صادقة، قد تفعل المستحيل، أو لشيء بالموعظة.

---

(١) إصلاح المساجد برقم ٢٩، وإسناده ضعيف.

أساليب فيها مودة واعتبار، ومنها:

ـ أسلوب النداء الإقناعي أو التحذيري: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ [لقمان: ١٣]. فلا تقلل من كلمة يا بني! يا أخي، يا حبيبي، يا بني! يا بنتي، يا زوجتي، إذا بدأت بالنداء، فالنداء يقرّ بالقلب، لذلك الله استخدم النداء في آيات كثيرة جداً، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]. ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. وقال أيضاً: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]. وقال: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ـ أسلوب النداء يسهل دخول الموعظة إلى النفس:

أرأيت إلى أسلوب الموعظة؟! أن يبدأ بالنداء إما تحذيراً أو إقناعاً، ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

لذلك الواعظ، الأب، المعلم، الموجه، إن استخدم كلمات النداء المحببة يدخل إلى قلوب المستمعين، وليكثر الدعاة من أيها الأخوة الأحباب، أيها الأخوة الأكارم. هذا الكلام الذي يسهل دخول الموعظة إلى النفس، سوف نسميه النداء الإقناعي أو التحذيري.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

في القرآن نداء للأقوام إما فردي وإما جماعي:

لاحظ الأب الشكور كيف يكثر من النداءات على شكل نداء إقناعي أو نداء تحذيري، وتكثر الآيات التي تعتني بالنداء للأقوام، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، وكذلك: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٢٠]. وقال تعالى أيضاً: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

والنداء فردي أو جماعي: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وأيضا الجن حينما خاطب صلحاؤهم عامتهم. وكذلك الله تعالى وجَّه نداءً إلى المؤمنين في القرآن، وكذلك إلى أهل الكتاب.

خاطب المؤمنين بثلاث مئة آية، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أما نداء أهل الكتاب، ففيه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨].

ويتضح توجيه الله سبحانه في النداء في القرآن إلى الناس جميعاً، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١].

أسلوب النداء الإقناعي أو النداء التحذيري هذا يجعل مودة بين المتكلم والمستمع. والأب ينبغي أن يكثر من النداء الأبوي: يا بني، يا بنتي، ويخاطب أيضاً زوجته بـيا زوجتي.

لكن لو لاحظتم لم يخاطب سبحانه الكفار إلا بآية في القرآن الكريم، وخاطب المؤمنين بثلاث مئة آية، خاطب أهل الكتاب، خاطب الناس عامةً، خاطب الأقوام، خاطب الأفراد، خاطب الأنبياء. القرآن الكريم لم يخاطب الكفار إطلاقاً إلا في آية واحدة يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [التحريم: ٧] لأنهم ليسوا أهلاً أن يخاطبهم الله ﷻ، قياساً على هذه الحقيقة يوجد شخص مجرم فلمجرد أن تخاطبه فأنت تحترمه، هو أقل من أن تخاطبه، هو أحقر من أن تخاطبه، والدليل على ذلك قول الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]. الكذاب الدجال لا يخاطَب، يعاقب فقط.

ـ أسلوب الموعظة هو الأسلوب القصصي:

بالموعظة عندنا أسلوب آخر هو الأسلوب القصصي، فما وجدتُ أسلوباً أفعل في النفس كأسلوب القصة. أذكرُ أن إنساناً اتصل بي من مدينة اسمها لوس أنجلوس في أمريكا لا أعرفه، قال لي: أنا اسمي فلان، قال: أنا لي عمل لا يرضي الله ﷻ من أشد الأعمال سوءاً، قلت: ما هو؟ كان يعمل في تصنيع الأفلام الإباحية، قال لي: لكن تبت بسبب موعظة سمعتها من أحد العلماء. لما ذهبت إلى هناك بعد عام التقيت به في واشنطن، قلت له: ما هي الموعظة التي دفعتك للتوبة؟ قال لي: قصة سمعتها فأثرت في نفسي.

القصة أفضل أسلوب في التأثير، وأفعل أسلوب في الإفساد:

القصة لها تأثير؛ لأنها تتغلغل في خطوط دفاع الإنسان، كل إنسان يوجد عنده قناعات، وعنده فِكَر، وعنده تصورات، وهذه الفِكَر والقناعات والتصورات عبارة عن سدود لا يسمح لإنسان أن يخترقها، إلا القصة تستطيع أن تخترق هذه السدود وهذه الحدود اختراق تسلل، لذلك كما أنها أفعل أسلوب في التأثير فهي أيضاً أفعل أسلوب في الإفساد. أنت ممكن أن توصل إلى إنسان معين فكرة لا يمكن أن يقبلها مباشرةً أبداً، مستحيل أن يقبلها، أما من خلال قصة يقبلها.

الإنسان إذا قرأ القصة وتأثر بها، تسلسلت وراء خطوط دفاعه، لذلك يمكن أن تصلح إنساناً بقصة ويمكن أن تفسده بقصة، الله ﷻ خالق الأكوان المربي الحكيم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣].

معنى أحسن القصص بالمقابل في أسوأ القصص، كما أن هناك قصصاً جيدة هناك قصصاً سيئة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

الله تعالى قصّ على سيد الخلق قصة نبي دونه ليزداد قلبه ثبوتاً:

سيد الخلق إذاً قص الله عليه قصة نبي دونه ليزداد قلبه ثبوتاً ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩]، وقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧ ـ ١٨].

هناك آلاف القصص لا تعرفها لكنك تعرف القصة الأخيرة منها، وهذا خطأ كبير أن ترويها لأنها غير متناسبة، لا ترو قصة إلا إذا عرفتها من بدايتها حتى نهايتها، تجد عظمة الله، عدل الله، رحمة الله، حكمة الله ﷻ.

قصة تروي عدل الله ﷻ:

مرة استوقفني إنسان قال لي: يوجد رجل نزل إلى محله التجاري، تراشق اثنان بالرصاص، جاءته رصاصة طائشة، فدخلت في عموده الفقري فشلته فوراً، قال لي: ما ذنبه؟ هذه قصة من آخر فصل، قال لي: جاء ليرتزق، جاء ليفتح محله التجاري، عنده أولاد. لكني لا أعلم الجواب أنا مؤمن بعدل الله، مؤمن بحكمة الله، مؤمن برحمة الله، أما هذه القصة لا أملك تفسيرها، أخ كريم يسكن تحت هذا الرجل الذي أصابته رصاصة وشلّته، بعد عشرين يوماً من حديث إلى حديث قال لي: والله لنا جار مغتصب بيت أولاد أخيه، وما تركوا طريقاً ليستميلوه كي يرجع لهم البيت ولم يقبل، حتى وسطوا أحد الناس، توفي رحمه الله، استدعاه وقال له: يا بني! هذا البيت لأولاد أخيك وهم أيتام، وهم في أمس الحاجة إليه، رفض أن يعطيه إياهم بتعنت. يقول لهم الرجل: يا بني! هذا عمكم لا تشتكوا عليه في القضاء، اشكوه إلى الله. هو نفسه في اليوم الآتي نزل إلى محله التجاري في الساعة التاسعة تقريباً، استمع إلى إطلاق رصاص، مد رأسه ليرى، فجاءت رصاصة طائشة شلته فوراً.

ألم يقل لهم: اشكوه إلى الله ﷻ، هذه القصة عرفنا بدايتها ونهايتها، هذه عندما تُروَى تظهر عدل الله ﷻ.

قصص تبين أن بطش الله شديد:

أحياناً الله يبطش، قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: ١٢]، رجوته أن يأتيني بها بالتفصيل، فإذا جاءتني أرويها لكم بشكل مفصل، شيء لا يصدق، رجل في مقتبل العمر له ابن طبيب والثاني مهندس والأم والبنات تآمروا جميعاً

على اتهامه بالسفه، والقاضي رأى الروايات كلها متقاربة فحكم باسترداد المبالغ، والله ﷻ دمرهم جميعاً.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

فالقصص أحياناً تفعل فعل السحر، اكتبها واروها بشكل دقيق.

قصة وقعت في ألمانيا منذ فترة: إنسان قاتل استطاع بشكل عجيب أن ينجو من عقوبة القتل بألمانيا، لا يوجد دليل، لكن كل من حوله يعلمون أنه قتل زوجته، انتقل إلى بيت جديد، في البيت وجد شجرة يبدو أنها تعيق حركة أهل البيت، في البيت صحن مثل فتحة سماوية، جاء بمنشار كهربائي، داخل في الشجرة رصاصة من الحرب العالمية الثانية، المنشار الكهربائي دفع الرصاصة بعنف إلى صدره ودخلت في قلبه فقتلته فوراً، الرصاصة استقرت في هذه الشجرة منذ عام ألف وتسعمئة وأربعين، كل من حوله يعلم أنه هو الذي قتل زوجته، لكن لا يوجد دليل قوي، ظنوا أنه موت طبيعي، وهو ظن أنه نجا، انتقل إلى بيت والبيت فيه شجرة فيها رصاصة مستقرة منذ الحرب العالمية الثانية:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

الإنسان ينبغي أن يتعظ، والله لو لم يكن هناك كتاب ولا سنة لكانت أفعال الله، لو تتبعتها في هدوء وبتقصٍّ وتأمل لوجدتها كتاباً وسنة.

أسلوب الوصايا:

الأسلوب الثالث: أن تقدم وصية، أنا أَلِفتُ أن أقرأ لكبار العلماء وصية لبناته أو وصية لأولاده، فيمكن بالنداء الإقناعي والتحذيري، والقصة، والوصايا والتوجيهات أن تكون حقائق ثابتة من بعدك.

اعتماد التنوع بين مخاطبة القلب والعقل أو الجمع بينهما في نص واحد:

كلما ارتقى الإنسان ينبغي أن تأتي مع مواعظه أدلة مقنعة قطعية عقلية واقعية نقلية فطرية، يوجد أدلة فطرية، يوجد أدلة واقعية، يوجد أدلة نقلية، يوجد أدلة عقلية، كلما أكثرت من الأدلة النقلية والعقلية والواقعية والفطرية كانت موعظتك أقوى. وكلما ابتعدت عن الخرافة والتهويل والتضخيم والمبالغة تكون الموعظة أقوى. وكلما وافقت بين مخاطبة العقل ومخاطبة القلب كانت الموعظة أولى. ينبغي أن تخاطب العقل تارةً والقلب تارةً أخرى، لكن الله ﷻ في آية واحدة خاطب القلب والعقل معاً بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٧].

ما غرك بربك الكريم: خاطب قلبه، الذي خلقك فسواك، فعدلك: خاطب عقله، الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، ولا يعقل أن تكتفي بمخاطبة عقله، كما أنه لا يعقل أن تكتفي بمخاطبة قلبه، لا بد من أن تجمع بين مخاطبة العقل ومخاطبة القلب.

إذاً من أساليب الموعظة أن تستخدم النداء الإقناعي أو النداء التحذيري، وأن تستخدم القصة بكل فصولها، وأن تكون واقعية، ثم أن تستخدم أسلوب الوصية، ومع كل هذه الأساليب ينبغي أن تعتمد الدليل والتعليل، وكلما كان الدليل أقوى ومتنوعاً من نقلي إلى عقلي إلى فطري إلى واقعي كان التأثير أقوى، وأن تعتمد التنوع بين مخاطبة القلب والعقل أو الجمع بينهما في نص واحد كما فعل القرآن الكريم.

الفصل السادس

الباب الأول: الانفتاح المعاصر وأثره على التربية في المجتمعات الإسلامية:

أولاً: ماالمقصود بالانفتاح؟

ثانياً: وسائل الانفتاح.

ثالثاً: آثار الانفتاح في الأبناء.

رابعاً: ما المقصود بالتربية المعاصرة؟

خامساً: أهمية التربية في عصرالانفتاح.

سادساً: عناصر التربية في ظل الانفتاح.

سابعاً: تحديات التربية المعاصرة.

ثامناً: صعوبة مهمة التربية.

تاسعاً: طرق وقاية الأبناء من آثار الانفتاح.

عاشراً: الوسائل الكفيلة بتربية صحيحة.

الباب الثاني: وصايا لقمان ومكانتها في التربية المعاصرة.

الباب الأول
الانفتاح المعاصر وأثره على التربية في المجتمعات الإسلامية

تُرى ما نسبةُ التفاؤل المتوقعة لنجاح جهود الآباء في تربية الأبناء في ظل هبوب رياح الشرق والغرب ومحاولاتها المستمرة في اقتلاع الثوابت، وتبديل القيم، وإحلال ثقافة مستوردة لا صلة لنا بها، ولا شيء مشترك يجمع بيننا؟!

كيف يتصرف الآباء والأمهات ـ وهم الحريصون على إكساب أبنائهم مناعةً أخلاقية تحميهم من آفات الانفتاح العشوائي على ثقافات العالم ـ إذا ما وجدوا قوة في الريح تجذب أبناءهم لخلق التشويه أو الانقلاع من هويتهم؟

ومع اجتهاد الآباء والأمهات في التعريف بالطريقة المثلى التي تضمن السير في الاتجاه الصحيح، إلا أن الخوف من حدوث ثغرات في الفهم ونقص في الاستيعاب يبقى قائماً.

فهل تتوفر للأبناء قدرة كافية للحفاظ على توازنهم وسط لوثة الفِكَر، وهشاشة البنية الثقافية المستوردة المراد ترسيخها في المحيط الاجتماعي؟!

إنها مشكلة تبدو صعبة الحل، ولغز يبدو عسيراً على الإجابة، ومعضلة تحتاج إلى متخصص ليفك طلاسمها ورموزها!

فكيف يعيد الأبناء ترتيب أوراقهم من جديد؟! وكيف يتمثلون الصورة المثالية الرائعة التي رسمها لهم الوالدان عن الشخصية الناجحة التي تثير إعجاب الناس، وتستحوذ على اهتمامهم، ما دامت ملتزمة بالمبادئ والقيم، وهم يرون المثل الجميل يتحطم أمامهم كل يوم أمام إغراء فتاة أو صوت مغنية، أو لقطة

ساخنة لفيلم يستبيح نظر المشاهد، ولا يراعي لجوارحه حرمة، ناهيك عن أن يعتني بمشاعره أو يلتفت إلى ما أحدثته من خراب وتدمير في نفسه؟!

هل تعدُّ التربيةُ القائمة على القمع والإرهاب والتخويف وقتل المشاعر والإحساسات وصياغة الشخصية الجافة الصارمة الناقمة على المجتمع الأسلوبَ الأمثل لتربية هذا الجيل؟

هل عبارات (اسكت يا ولد.. لا تجلس مع الكبار.. أنت لا يعتمد عليك.. أنت فاشل.. فلان أحسن منك.. عيب عليك أما تستحي.. سودت وجوهنا.. ما فيك خير.. وتوجيهات كالحرمان من المال أو السيارة.. أو من الخروج مع الزملاء بحجة عدم الوقوع في المحظورات.. واختيار نوعية الأكل والشرب واللباس.. وقسر الأبناء على دراسات لا يرغبونها.. وإجبارهم على اعتناق فِكَر لا يؤمنون بها..) هل هي أساليب مجدية؟

هل استخدام العصا وحلق الرأس والنهر والزجر والصراخ في وجوه الأبناء.. وركلهم ورفسهم وهم نائمون وجرهم من شعورهم.. والبصق في وجوههم.. وتحقيرهم.. والتعامل معهم بفوقية وفرض الطاعة المطلقة عليهم أساليبُ وطرائقُ تتوافق مع طبيعة عصرنا الحاضر؟

تعدُّ التربية أمراً معقداً لا يستطيع القيام به كل أحد، وكلما اتسع نطاق البيئة التي تتم فيها هذه المهمة ازدادت صعوبتها وبرز فيها خطر التأثر بما يمكن تلقيه من فِكَر وسلوكيات، وفي عصر العولمة صارت البيئة هي العالم كله، على ما فيه من اختلاف في الديانات والثقافات، يزداد حيناً ليكون تضاداً، ويقل حيناً ليكون تنوعاً.

إن زماننا هذا زمن الانفتاح والمتغيرات، ومع كثرة التقنيات والفضائيات وكثرة الثقافات والشبهات أصبح الشباب يعيشون اليوم في مفترق طرق، وتحت تأثير هذه المتغيرات. ولا شكّ أنها تسبب لهم كثيراً من المشكلات التربوية والأخلاقية.

لقد أحدثت الفضائيات والشبكة العنكبوتية (الإنترنت) تغيراً مهماً في المجتمعات بما قدمته من وسائل للاتصالات، جعلت العالم ينساب بعضه على بعض، فلا حدود ولا قيود تقف في وجه انتقال المعلومات، والتربية بحكم عملها وطبيعتها أكثر جوانب المجتمع عرضة للتغير؛ وبناء على ذلك فالمتغيرات الحادة التي ينطوي عليها عصر المعلومات وعصر الانفتاح، ستحدث تغيراً كبيراً في منظومة التربية؛ مناهجها وأساليبها وأثرها، ولذا أصبح من المهم مراجعة منظومة التربية لتتوافق مع الأثر الذي ستؤديه في زمن الانفتاح.

لم يعد المربي هو من يوجّه فقط، ولم يعد المتربي رجلاً سِلْماً لمربيه، بل فيه شركاء آخرون، فالقنوات الفضائية وما تبثه من إغواء أو إغراء تخالف قيم المجتمع الإسلامي وتدعو إلى الفحش والرذيلة، والشبكة العنكبوتية وما تحمله في طياتها من مواقع إباحية أو عدائية ومقالات تدعو إلى مساوئ الأخلاق، وفي المقابل طرح خيارات فكرية تشوه الفِكَر الإسلامية الصافية وتحارب مبادئه وقيمه الزكية، وتنوع مجالات الانفتاح وازديادها بحيث لا يمكن حجبها، كلُّ ذلك يزيد من صعوبة التربية في زمن الانفتاح. لقد أصبحنا عبر السماء نستقبل فِكَر الأمم وثقافتهم وما يبث من سموم.

لم يعد من السهل على أبنائنا وشبابنا الوقوفُ أمام هذه المغريات دون أن يكون هناك من يمد لهم يد العون والمساعدة من المربّين، ولم يعد من السهل

على المربين أن ينجحوا في مهمتهم في تربية الأجيال ما لم يفقهوا التربية في زمن الانفتاح.

لقد أصبح أمامنا بصفتنا مربين العديد من التحديات التي تجعل من موضوع التربية الأسرية وغير الأسرية إشكالية يلزم تمحيصها والتفكر فيها حتى يتسنى لنا اتخاذُ القرار السليم، وتتمثل أهم التحديات في الانفجار المعرفي المذهل الذي يحتاج مواكبةً سريعةً من قبل الأجيال القادمة، والمتناقضات السياسية الخطيرة التي يعيشها مجتمعنا العربي والإسلامي وما وصل إليه هذا المجتمع من ضعف شديد وما يحمله هذا الوهن من مضمون سيئ يستشعره الشاب في زلزلة كيانه وبوهن عزيمته وثقته.

إننا في عصر الانفتاح غير المعهود على ثقافات غريبة يسَّرتها لنا وسائلُ الإعلام الحديثة من دش وإنترنت. فبالأمس كان هذا الانفتاح محدوداً وكان اطلاع الأبناء على هذه الثقافات تحت إشراف الوالدين نسبياً، أما الآن فإننا نعيش مشكلة كبيرة تتمثل في هذا الفيض الجارف من المفاهيم والقيم الأجنبية الوافدة إلينا، والتي بدأت آثارها المدمرة تبدو جلية في ما نشهده من مشاكل لم تعهدها مجتمعاتنا سابقاً (العلاقات الجنسية عبر النت، العلاقات غير الشرعية مع المحارم، الممارسة المثلية... إلخ).

لقد أصبحت عقول وفِكَر وأخلاق أبنائنا ميدان سباق، والدعاة والمربون أحق من ينافس وأجدر من يسابق للوصول إليها وحمايتها من كل زيغ أو فساد.

ففي ظل هذا الانفتاح تتضاعف مسؤولية المربين في تربية النشء، وفي إعداد جيل يحمل مبادئ الإسلام وقيمه، وفي ظل هذا الانفتاح يزداد العبء على الدعاة والمربين للوصول بالجيل الناشئ إلى بر الأمان بعد توفيق الله تبارك وتعالى.

فهل أدوات البناء عند المربين تنافس الإغراءات المطروحة؟ وهل تنافس حجم التجديد والابتكار في الجذب والإغواء؟ وهل المراجعات لمنظومة التربية الدعوية كافية لتناسب زمن الانفتاح؟ وما السبلُ الكفيلة بتربيةٍ صحيحة في هذا الزمنِ زمنِ الانفتاح والعولمة؟

لقد تحول الجزء المؤثر والكبير في التربية الآن من المؤثرات الأساسية، وهي الأسرة والمسجد والمدرسة، إلى مؤثرات جديدة معاصرة، تتجاوز حدود البيئة المحلية، إلى بيئة لا هوية محددة لها، ولا ضوابط واضحة تحكمها، وصار لها الكلمة الأولى في تحديد أخلاق الأجيال وثقافتها، هذه المؤثرات هي التلفاز، وأطباق الاستقبال، والكمبيوتر، والإنترنت، والمحمول، وألعاب (الفيديو جيم) وغيرها..!

لم يكن أحد يشعر بآثار هذه الوسائل السلبية؛ لأنها قد يكون لها آثار إيجابية متوقعة، وحاجة الحياة المعاصرة إلى هذه الوسائل كبيرة وملحة، كما أن آثارها السلبية لم تظهر مرة واحدة ـ مع تحذيرات كثير من التربويين منها قبل انتشارها ـ، وإنما ظهرت أولاً محدودة نوعاً ما، ثم أخذ أثرها السلبي في الظهور والاتساع بمرور الزمن، وتطور تلك الوسائل وانتشارها.

والخطير في هذه القضية هو حجم التأثير الكبير والعميق وسرعة التغيير الذي تحدثه تلك الوسائل المعاصرة في مستوى التدين والثقافة والسلوك والمفهومات والذوق العام على شبابنا وفتياتنا، فمحاولات التغريب كانت تسير في مجتمعاتنا ببطء شديد، ولم يكن دعاة التغريب يحلمون بحدوث التغيير إلا بعد أجيال عدة، أما بعد انتشار تلك الوسائل الإعلامية والثقافية فمكاسب التغريب

صارت أكبر كثيراً مما كان يحلم به أولئك، فالتغيير في الأخلاق والمفهومات أصبح الآن يحدث عبر جيل واحد مرة أو مرتين.

وهذا التغيير السريع والتأثير الفوضوي الكبير يؤدي إلى إخفاق العمل التربوي في المجتمع، ويسبب له الإرباك والتهدم، وتتفسخ الروابط بين الأجيال، ويرى كل جيل لنفسه الحق في التبرؤ من الجيل الذي سبقه، والاستقلال عن مفهوماته وأجوائه، حتى يفقد الوالدان القدرة على التفاهم مع أولادهما، ويقعان في حيرة في اختيار نوع التوجيه المناسب لهم، ويعجزان عن السيطرة على تصرفاتهم وتقويمها، بل ربما لا يجدان الوقت لممارسة التوجيه والتربية سواء في المواقف أو الأقوال، ليس لانشغالهما؛ بل لأن أولادهما لا وقت لديهم، لانشغالهم بالدش والكمبيوتر أو الإنترنت!

هل نغلق هذه السماوات المفتوحة أمام أبنائنا ونسجنهم داخل عباءتنا، أم أن هذا مستحيل والأجدى بنا أن نمعن التفكير في بديل لما نتبعه من تربية حالية، بديل ثوري يغير كثيراً مما ألفناه؟

بديل يتطلب منا أن نغير ما ورثناه من علاقات مع آبائنا، فنتنازل عن هذه الفوقية التي نعامل بها أبناءنا، ونهبط معهم إلى معترك الحياة؛ لنقف معهم جنباً إلى جنب أمام اللغز الكبير الذي تطرحه تحديات ومعطيات العصر الحالي.

التربية التي ننادي بها هي تربية ناقدة تسمح لأبنائنا بالتفكير وطرح الأسئلة حول كل ما يدور حولهم من أحداث. تربية حرة لا تقيد التفكير بدعوى شعارات زائفة أو قيم موروثة ما أنزل الله بها من سلطان. لم يعد يكفينا أن نمد أبناءنا برصيد قيمي أو ديني ثم نتركهم وحيدين في هذه الحياة.

أولاً: ما المقصود بالانفتاح[1]؟

نلحظ جميعاً تقارب العالم والتحام الأمم واختلاط المفاهيم وانفتاح المجتمعات على بعضها، ولا ينكر أحد أن التأثر بالبعيد أصبح ملموساً ومشاهداً مع ما يحمله من أخطار، وفي الوقت نفسه أصبح القريب أكثر قرباً وتلاصقاً، فالقريب الملاصق هو الدين والمجتمع الإسلامي مما صنع لنا من فرصة التماسك والتعاون مع المجتمع الإسلامي في كل شيء.

إن الانفتاح لا يأتي لمجرد أمر أو رغبة، ولكنه سلوك ينشأ ويتجسد من ثقافة وبيئة المكان، وأسلوب العمل. فهناك نمط تفكيري من فتح على الآخرين. وهناك نمط آخر يجيد فن العزلة والاختباء.

وبحسب طبيعة تفكير كل فرد، ونظرته إلى العالم من حوله يكون منفتحاً أو منغلقاً أو بين هذا وذاك، وهو أيضاً طريقة عمل تعتمد على أسلوب التفكير.

فالإنسان الاجتماعي بطبعه سيحتك بالآخرين ويمارس أعماله بينهم، ولا يبحث عن أشباهه فقط للجلوس أو التعامل معهم.

عالم اليوم قرية صغيرة؛ إذ ساعدت وسائل الاتصال والتقنية في ربط جميع أرجائه، وما يحدث في أي جزء منه يُشاهَد ويُسمَع به في ثوان معدودة قبل أن يرتد إليك طرفك أو تقوم من مقامك.. فالإنترنت والهواتف النقالة والقنوات الفضائية والإذاعات فتحت كل الآفاق، وأضحى من المستحيل أن ينعزل أي جزء عن هذا العالم المفتوح.

إن من مظاهر العولمة ـ التي يسعى إليها الغرب ويريد أن يفرضها على أمم الأرض وعلى الأخص الأمة الإسلامية والعربية ـ إلى جانب مظاهرها الاقتصادية

---

(١) تربية الأبناء في الزمن الصعب، عبد الرزاق كيلو، ص٢٣، دار المنارة، ١٩٩٨.

هناك العولمة الأخطر وهي العولمة الثقافية والاجتماعية؛ فهذا النوع من العولمة يهدف إلى القضاء على كل القيم التي تكون الهوية الثقافية للإنسان العربي والمسلم، ومن ثم فالعولمة الثقافية تهدف إلى تنميط النموذج الغربي الثقافي وجعله قدوة بالنسبة للمجتمعات العربية والإسلامية.

وعلى هذا الأساس فإن الغرب يريد أن يكون الانفتاح من العالم الإسلامي والعربي على كل شيء في الغرب حتى في مجال العقيدة والثقافة والفكر، فما هو الانفتاح المطلوب؟ إن الانفتاح الواعي هو أن ننطلق من قيمنا ومبادئنا وأصالتنا للأخذ بالمعرفة والتطورات العلمية التي تحدث في الغرب، مع محافظتنا على تلك القيم والمبادئ والأصالة التي تميزنا بها عن الأمم.

ثانياً: وسائل الانفتاح[1]:

في ظل عصر تتلاشى فيه الحدود الثقافية بين الدول، وفي ظل ثورة علمية تكنولوجية واسعة، يكون لوسائل الإعلام أثر كبير في بناء أبنائنا ثقافياً ودينياً واجتماعياً عبر الوسائط الإعلامية، مثل التلفاز والفيديو والإلكترونيات المختلفة (الألعاب الإلكترونية) أو عبر الإنترنت أو المجلات.

ثالثاً: آثار الانفتاح في الأبناء:

ـ الآثار الخارجية:

١ ـ إتاحة الوصول السريع لكل ما هو معروض ومتاح بسبب السرعة والانفتاح، وإذا كانت السرعة في عرض المفهومات التربوية الإيجابية غير صحية في تنشئة الطفل والمراهق، حيث يجب مراعاة المرحلة العمرية في تقديم

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩.

المفهومات ومراعاة الوقت في ترسيخها؛ فما ظنك حينما تكون ميزة السرعة التي توفرها تلك الوسائل الحديثة مستغلة في الوصول إلى المفهومات الفاسدة، وتعلم العقائد والثقافات والفِكَر والعادات الباطلة والسيئة؟!

فقبل انتشار الوسائل الحديثة كان الوالدان يستطيعان التحكم في التغذية العقلية للطفل، فيتحكمان فيما يسمع وفيما يقرأ وفي الأماكن التي يرتادها وفي تكوين الصداقات، لكن الوسائل الحديثة الآن ـ بما توفره من سرعة وانفتاح ـ تهدم سيطرة الوالدين وتخرجهما تماماً من التأثير في العمل التربوي.

٢ ـ الإخلال بتقديم الأولويات التربوية، ومن ثم تيسر الوسيلة للوصول المبكر لمفهومات اجتماعية قبل وقتها، عبر ما يعرض من ألعاب أو أفلام أو إعلانات متلاحقة، كمفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة، فيراها طفل لم يبلغ الخامسة أو السادسة، وفي كثير من أفلام الأطفال، التي تحوي في مضمونها وإسقاطاتها عوامل هدم وفساد. وإذا ذهبنا إلى ما بعد الطفولة، فهناك الأفلام والأغاني والبرامج التافهة والإعلانات الساقطة، التي تعمل على إثارة الشهوات وغرس الرذائل، مما له تأثير ضار في الإنسان، وخصوصاً فيمن هم في سن المراهقة.

٣ ـ تقديم المواقف بصورة ممثلة مصحوبة بمؤثرات مرئية وصوتية، وهي ميزة لها آثار إيجابية كثيرة ونافعة، لكن مع ذلك لها آثار غير صحية في التربية، قد تضر بالنفس والعقل إذا ما تُركت مطلقة بلا ترشيد أو توجيه؛ إذ تؤدي إلى ملء خيال الطفل بها، مما يؤدي إلى ثبات هذه المواقف في الذاكرة بصورة قوية وملحة. والخطر هنا يكمن في أن تكون تلك المواقف والمشاهد غير مناسبة لسن الطفل أو المراهق، أو مواقف فاسدة، أو مواقف مفزعة تسبب الفزع للطفل في أثناء النوم، أو تزرع فيه الخوف والقلق والاكتئاب، أو مواقف دافعة لارتكاب

الجرائم والفواحش لما تقدمه من شخصيات خيالية مفزعة تتمتع بقوى خارقة، وتقوم مواقف الفيلم كلها على الصراع والتدمير، كذلك الحال في ألعاب (الفيديو جيم) التي ينتشر فيها الصراع الدموي العنيف، وهي ألعاب لا تزرع الشجاعة والقوة في نفس الطفل والمراهق، بل تزرع فيه إما العنف والقسوة والظلم، وإما القلق والخوف.

٤ ـ تأثير في القدرة على التصور العقلي؛ إذ يعتاد العقل مشاهدة كل شيء مصوراً أمامه، جامداً على الصورة المشخصة التي تقدمها اللعبة أو فيلم الكارتون، فيضعف فيه حس الخيال والتصور النظري، بل قد يصل الحال إلى عجزه عن تصور مسألة حسابية سهلة وحلها دون كتابتها على الورقة، بسبب ما قد تصيب به تلك الوسائل العقل من سلبية في التلقي؛ إذ ينبغي أن تكون مزيجاً من التفاعل بين السماع والرؤية والنقاش والتفكير.

٥ ـ تولُّد آثار خطيرة في النفس من الصعب معالجتها بسبب مشاهدة التمثيليات والأفلام والإعلانات والقصص والمواقف التي لها إسقاطات ودلالات كثيرة؛ فعلى سبيل المثال قام طالب بمحاولة السطو على بنك في مصر بعد مشاهدته لفيلم عربي.

٦ ـ إدمان مشاهدتها بسبب الجذب الشديد لتلك الوسائل، فمنهم من يفقد الإحساس بنداء الصلاة، ومنهم من يفقد الإحساس بمن حوله فلا يشعر بنداء، ومنهم من يفقد الإحساس بالوقت حتى يضيع مسؤولياته وواجباته، بل قد تؤدي إلى الانتحار عندما يمنعون منها كقصة الفتاة المصرية التي انتحرت بسبب منع والديها لها لإدمانها الإنترنت.

ـ آثار المضمون الذي يُقدم من خلال هذه الوسائل:

لا يخفى أن هذه الوسائل وما يتطور عنها وظفها الغرب، كما وظفها كثير من الفاسدين في مجتمعاتنا، لتحقيق مآربهم الخبيثة في التغريب، للسيطرة على الأجيال القادمة وتذويب هويتها، وحققوا في ذلك تقدماً عظيماً. ومما زاد الطين بلةً غيابُ أو ضعف الرقابة الفعالة، سواء على مستوى الهيئات الرسمية أو على مستوى الآباء والأمهات في الأسرة، والإهمال في تحمل المسؤولية الدينية والتربوية والثقافية، فأصبحت الكلمة الأولى والأخيرة في التربية لمن يسيطر على توجيه تلك الوسائل، ويضع لها المضمون الذي يُبث من خلالها، وتُركت تلك الوسائل المعاصرة وحدها لكي تشكل العقول، وتغرس العادات والتقاليد، وتؤصل الثقافات، وتصوغ المفهومات التربوية والاجتماعية بحسب رغبة مالكيها والقائمين عليها وتوجهاتهم الفكرية.

ونتاج التربية الواقعة تحت سيطرة هذه الوسائل المسخرة لتغريب مجتمعاتنا المسلمة لن يكون إلا الفساد والانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية، وهذه بعض نماذج تمثل هذا النتاج:

١ ـ (نموذج الهوَس بأهل المجون):

قال رب أسرة من مدمني التلفزيون: «إن اللهجة اللبنانية يجب أن تكون هي اللغة العربية الأم»، لهوس ذلك الرجل ببعض ماجنات الغناء.

٢ ـ (نموذج ستار أكاديمي وسوبر ستار ومباشرة على الهواء):

إذ تُفاجأ بمقدار المتابعات الكبيرة لهذا النوع من البرامج الفاسدة، والذي يثبتها ويدل عليها الكم الهائل من المكالمات التي يجريها الجمهور لترشيح نجمتهم أو نجمهم المفضل في تلك البرامج الساقطة، إضافة إلى الرسائل التي تظهر

على الشاشة، وتحتوي على عبارات فاضحة هي في الوقت نفسه مصدر دخل عظيم لهذه القنوات.

٣ ـ (نموذج الولع بأرقام المحمول المميزة):

إذ تقام في بعض دول الخليج مزادات يتنافس فيها الأثرياء لشراء أرقام هواتف جوال مميزة، وعلى سبيل المثال فقد تم بيع رقم خط لهاتف جوال في مزاد علني تم تنظيمه في الدوحة بمبلغ عشرة ملايين ريال قطري، بما يعادل (٢,٧٥٤) مليون دولار، بعد مزايدة حامية عليه بين (٨) من الأثرياء.

٤ ـ (نموذج الإقبال على المواقع المنحرفة):

في دراسة للدكتور عبد العزيز كابلي ـ من كلية المعلمين بالمدينة ـ ذكر أن (٥٠٪) من استخدام الشباب للمقاهي العنكبوتية هو من أجل أمور منافية للأخلاق والقيم. فكيف ستتخيل شباباً لأمة في المستقبل وهم قد ترعرعوا على إسفاف التلفاز، وفضائح الدش، وإباحيات الإنترنت، وأنغام (السيديهات) والكاسيت، وغراميات المحمول؟!

ـ وهناك آثار اجتماعية أخرى:

١ ـ غلبة الطابع المادي على تفكير الأبناء، فمطالبهم المادية لا تنتهي، ولا يجد فيهم الآباء تلك الحالة من الرضا التي كانت لدى الآباء أنفسهم وهم في هذه المراحل العمرية، فالمتطلبات المادية مع كثرتها في أيديهم لا تسعدهم، بل عيونهم على ما ليس لديهم، فإذا أدركوه تطلعوا إلى غيره، وهكذا!!

٢ ـ سيطرة الأبناء على الآباء على عكس ما ينبغي أن تكون عليه الحال، فقد درس عالم النفس «إدوارد ليتن» هذه الظاهرة على الآباء في أمريكا، وقرر أننا نعيش في عصر يحكمه الأبناء، فبدلاً من أن يوجه الآباء أبناءهم، فإن الأبناء هم

الذين يوجهون سلوك آبائهم، فهم الذين يختارون البيت، ويشيرون بمكان قضاء العطلة، وإذا دخلوا متجراً مضى كل طفل إلى ما يعجبه، وما على الأب إلا أن يفتح حافظته ويدفع![1].

٣ ـ روح التكاسل وعدم الرغبة في القراءة، وتدني المستوى العلمي لكثير من الأبناء.

٤ ـ ما يسمى بصراع الأجيال، ويقصد به اتساع البون بين تفكير الأبناء وتفكير الآباء، وعزوف الأبناء في كثير من الأحيان عن الاستفادة من خبرات جيل الكبار؛ إذ ينظرون إلى خبراتهم على أنها لم تعد ذات قيمة في هذا العصر الذي نعيش فيه.

٥ ـ ما يعرف بالغزو الفكري والثقافي؛ المتمثل فيما يشاهده الأبناء ويستمعون إليه عبر وسائل الإعلام المختلفة من عقائد وفِكَر وقيم، ربما لا تكون في كثير من الأحيان متفقة مع عقائد وفِكَر وقيم مجتمعاتنا.

رابعاً: ما المقصود بالتربية المعاصرة؟

التربية كما عرَّفها أهلُ التربية هي الأسلوب الأمثل في التعامل مع الفطرة البشرية وتوجيهها توجيهاً مباشراً بالكلمة وغير مباشر بالقدوة، وَفْق منهج خاص ووسائل خاصة لإحداث تغيير في الإنسان نحو الأحسن. وبمعنى آخر: إن التربية تعنى بإعداد الإنسان إعداداً يتناول كل جانب من جوانب حياته الروحية والعقلية والجسدية، وحياته الدنيا وما فيها من علاقات ومصالح تربطه بغيره، وحياته الأخرى وما قدم لها في حياته الدنيا من عمل يجزى عليه في نيله لرضا ربه أو غضبه.

---

(١) عدنان السبيعي، من أجل أطفالنا، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ، ص٧٠.

التربية تكلم عنها وعني بها الفلاسفة والعلماء منذ قديم الزمن، فأفلاطون الفيلسوف الشهير قال: «إن التربية هي إعطاء الجسم والروح ما يمكن من الجمال والكمال»، وهي كلمات جميلة ذات دلالات عميقة، فالجمع بين الجمال والكمال لكل من الجسم والروح ليس أمراً سهلاً، ولعل تعريف التربية بطبيعة عملها ومجالاته يوضح مدى ضخامتها، فهي: «تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها روحياً وعقلياً ووجدانياً وخلقياً واجتماعياً وجسمياً».

خامساً: أهمية التربية في عصر الانفتاح:

إن إدراك أهمية التربية والتسليم بها هو أولى الخطوات اللازمة لإعطائها حقها وحسن العناية بها، وتوظيفها في مواجهة ما في الانفتاح من السلبيات، وهذه الأهمية لها وجوه متعددة من خلال ما يأتي:

ـ أهمية التربية في النصوص الشرعية:

١ ـ كانت عناية الله بتربية الرسول الكريم ﷺ سمة بارزة من أول بعثته وتحمله أمانة الرسالة؛ إذ كان من أوائل ما نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦]، وخاطبه ربه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] وتأمل! فإن المخاطب بذلك هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فكيف بمن دونه؟! وكل الناس دونه.

٢ ـ بيان النبي ﷺ لأثر التربية العميق في قوله: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1]، ويوضح استمرار وتوسع الأثر وعدم

(١) رواه البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٢٦٥٨.

اقتصاره على مرحلة الصغر، وذلك في حديثه القائل: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[1].

٣ ـ عناية النبي ﷺ بتربية أصحابه بدار الأرقم معلمٌ بارز، وشاهدْنا أثر تلك العناية؛ إذ حرَص النبي على العناية مع الاستتار والإسرار، وهي المحضن التربوي الأول في الإسلام.

٤ ـ قيام الصحابة بالعمل التربوي حسب التوجيه النبوي، كما في قصة إسلام عمر رضي الله عنه حيث كان لخباب بن الأرت رضي الله عنه لقاء تعليمي تربوي مع أخت عمر وزوجها رضي الله عنهم أجمعين.

٥ ـ استمرار النهج التربوي حتى في العهد المدني، فها هو ذا عمير بن وهب يُسلم جرّاء قول الرسول ﷺ لبعض الصحابة أن خذوا أخاكم فعلموه دينه.

٦ ـ عن معاذ رضي الله عنه أنه كان يقول لبعض أصحابه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[2]، وللحاكم في المستدرك «جددوا إيمانكم؛ فإن الإيمان يخلق»[3]، وكل هذه شواهد على أهمية التربية من حيث الأمر بمفرداتها، أو بيان أثرها أو التوصية بها والتوجيه إليها.

سادساً: عناصر التربية في ظل الانفتاح:

وهي تنحصر في العناصر الخمسة الآتية: المربي، المتربي، مادة التربية، بيئة التربية، طرق ووسائل التربية.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٣٩٨) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري ٤٤٠/٢، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٣٠٣٦٣.

(٣) رواه الحاكم: ٧٧٣١.

ومن ثم، فعلينا أن ننظر إلى ما أحدثه الانفتاح على كل عنصر من العناصر الخمسة لنتمكن من تكوين التصور المناسب لهذه القضية التي هي عنوان الديوانية، ومن ثم نعرف ما الذي يمكن عمله تجاهها والحلول المناسبة لذلك.

١ ـ **المربي**: حقيقة نجد أن أول المتأثرين بهذا الانفتاح هم المربون سلباً أو إيجاباً، فهم على أربعة أنواع:

النوع الأول: استفاد من الانفتاح فصار تأثيره أكثر وأوسع مما كان من قبل، ومن ثم استثمر هذا الانفتاح وبات تأثيره الإيجابي يصل إلى كل من استوعب واستخدم وسائل الانفتاح بشتى أنواعها، واتسع تأثيره باتساع الكرة الأرضية، وعم خيره من حيث لا يدري.

أما النوع الثاني: فهو على العكس تماماً؛ لم يستفد من الانفتاح، وظل مكانه بأدواته القديمة نفسها، ومن ثم ظل تأثيره محدوداً فيمن حوله، هذا إن لم يكونوا قد انفضوا من حوله، وأصبح يؤذن في غير وقت الأذان.

أما النوع الثالث: فهو في حيرة؛ مازال يحاول أن يستوعب التغييرات الحاصلة، ووقف موقف المتفرج إلى حين، أو أنه غير قادر على مواكبة الانفتاح.

أما النوع الأخير: فقد جرفه تيار الانفتاح، وصار عمله في التربية كالتحفة القديمة في المنزل ينظر إليها ويذكر ماضيها، وانتقل من صفوف المربين إلى صفوف المتربين مرة أخرى، وترك ما كان يقوم به من تربية من قبل.

٢ ـ **المتربي**: وهو محور العمل التربوي، وهو المستفيد الأخير من التربية، ويظل تأثره مرهوناً بمدى قوة وضعف عناصر التربية الأخرى وتأثيرها عليه إيجاباً أو سلباً، إلا أن الفطرة السليمة تدفع بالمتربي ولو بعد حين إلى تلقي المنهج التربوي السليم.

طبقات المتربين:

وهم طبقات؛ فمنهم طبقة جادة حريصة لم تلطخها الفتن والمغريات، ومازالت محافظة في زمن الفتن والانفتاح، وطبقة لا تناسبها البرامج الجادة وتأثرت بالانفتاح وظهر ذلك جلياً في حياتهم وتفكيرهم ومظهرهم، ولكن لديهم فطر سليمة وحب للدين والعمل لخدمة هذا الدين وحرص على البرامج المفيدة النافعة، ونخبة ذابت في أحضان الانفتاح وغرقت في كل مستورد وشهوة وضيعت القيم والأخلاق، وترفض كل تغيير.

والنجاح الدعوي يكمن في إعداد دعاة قادة جيدين وتربيتهم تربية صحيحة، وأن يعد هؤلاء الدعاة خطة ومناهج تتناسب مع كل طبقة من هذه الطبقات؛ فالطبقة الجادة لها برامج تختلف عن الأخرى، والطبقة التي تأثرت بالانفتاح تصمم لها برامج جيدة تتناسب مع طبيعتها، والطبقة الغارقة كذلك، مع الحرص والتركيز على الطبقة الجادة تربيةً وتعليماً وتأهيلاً؛ لأنها هي القلة المعول عليها كثيراً في بناء الأمة ونهضتها وعدم إغفال الشريحتين الأخريين للوصول بهم إلى مستوى لا بأس به من القيم والأخلاق، مع الاهتمام الكبير جداً بالنساء؛ فهم اللبنة الأولى في تربية الجيل القادم.

٣ ـ مادة التربية: أما مادة التربية فهي الإسلام بكل معانيه وخصائصه، وهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والأحوال، وإنما التغير يحصل من قبل المتربي لهذه المادة بمدى تشربه وقناعته والتزامه بها أو العكس.

٤ ـ بيئة التربية: إذ إننا لو أمعنا النظر في هذا العنصر، فسنجد أن بيئات التربية المؤثرة أساساً أربع بيئات ملازمة للفرد لا تنفك تؤثر فيه بعضها سلباً وبعضها إيجاباً، ويصرف جزءاً كبيراً من حياته فيها، وهي: المنزل سواء كان فرداً في أسرة أو مكوناً لهذه الأسرة، ودائرة التعليم أو الوظيفة، والمجتمع الذي يعيش

فيه ويتعامل معه، وأخيراً البيئة الذاتية للفرد التي يتعايش فيها مع نفسه. وكما نعلم فإن البيئة معينة للفرد ومحفزة له نحو الخير أو الشر، وبقدر وجود الفرد في البيئة الإيجابية، وقضائه أكبر الوقت فيها يظهر أثرها الإيجابي على الفرد. ولا ننسى أن جميع هذه البيئات تتأثر باختلاف الزمان وأدوات التربية فيه.

٥ ـ طرق ووسائل التربية: عند الحديث عن طرق ووسائل التربية لا بدّ لنا من وقفة من حيث مناسبة الطرق والوسائل للمتربي؛ فكل مرحلة من مراحل العمر لها ما يناسبها من وسائل التربية؛ فتربية الطفولة غير تربية المراهقة، وتلك تختلف عن تربية الشباب التي هي انطلاق لمرحلة الرجولة التي يكون من بعدها مرحلة الشيخوخة. ومن ثم يمكننا قياس أثر الانفتاح على كل شريحة عمرية وَفق طبيعتها وخصائصها. وطرق ووسائل التربية متنوعة؛ فمنها ما يناسب الفرد بصفة مباشرة ومنها ما يناسب المجتمع بشكل عام.

سابعاً: تحديات التربية المعاصرة:

يمكن أن نقسم هذه التحديات إلى قسمين:

أ ـ التحديات من جهة البيئة، وفيها:

١ ـ كثرة وتنوع المؤثرات: فاليوم لم يعد التأثير مقصوراً على الوالدين ولا على المعلمين والمعلمات، بل ولا على الدعاة، فقد كثرت وسائل التأثير؛ فهناك القنوات الفضائية والموجات الإذاعية والشبكة العنكبوتية والأسفار السياحية والبعثات التعليمية والعلاقات الدبلوماسية، وغير ذلك في قائمة طويلة.

٢ ـ قوة وعمق التأثير: هذه الوسائل تفاعلية؛ فهي بذلك مرغبة ومحفزة وجاذبة، وفيها أيضاً الوسائط الجامعة بين الصوت والصورة، مع التقنيات التي تجعل ما يُعرض أقوى وأوضح من الأشياء على طبيعتها وفي واقعها الحقيقي.

٣ ـ مخالفة واختلاف البيئة: فالتربية تدعو إلى المعالي إيماناً وعبادةً وسلوكاً، وترى البيئة وهي تهون من ذلك أو تثبط عنه، بل تعارضه وتناقضه وتدعو إلى ما يبطله ويمنعه، فالأمر أظهر من أن يبسط القول فيه، فالصدق جمود وتعقيد، والكذب (شطارة) ومهارة، والتستر والحشمة كبت وانغلاق، والعري والفسق تقدم وانطلاق.

ب ـ التحديات من جهة المربين:

١ ـ قلة المربين: كانت أمتنا في أزمنة سابقة ممتلئة بالعلماء الربانيين والوعاظ المؤثرين والخطباء البارعين والآباء المؤدبين والأمهات المربيات، واليوم نرى كثيراً من الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات غير مؤهلين لتربية الجيل لا من الناحية العلمية ولا من الناحية السلوكية، والدعاة والعلماء قلة أيضاً.

٢ ـ ضعف المربين: مع قلة الدعاة المربين فإن كفاءتهم فيها ضعف، وقدرتهم التأثيرية محدودة، فضلاً عن ضعفهم في أخذهم أنفسهم بسمْتِ المربين وتميزهم وارتقائهم.

ثامناً ـ صعوبة مهمة التربية:

مما يوضح صعوبة هذه المهمة:

١ ـ ميدان عمل التربية: إذ هي في الأساس تتعامل مع النفوس والأرواح لا مع الجسوم والأشباح، والنفس البشرية عالم من الغرائب والعجائب، وهي من أعظم مخلوقات الله المعجزة، فقد جعلت في كفة، وآيات الكون في كفة أخرى كما يتضح من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ

أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وفي سياق آيات خلق الله العظيمة قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وصدق القائل:

وتحسبُ أنكَ جِرْمٌ صغيرٌ وفيكَ انطَوى العالَمُ الأكبَرُ

فهذه النفس البشرية تجمع المتناقضات، مع سرعة في التغيرات والتقلبات، وقد أوجز ابن القيم وصفاً رائعاً يكشف طبائع النفس البشرية حين قال: «سبحان الله! في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، واستطالة فرعون، وبغي قارون،.... وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد،... غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك»(١).

هذه هي النفس في ذاتها، فكيف للمرء أن يربيها ويهذبها حتى يتسنى له أن يتأهل لتربية النفوس؟!.

٢ ـ رهافة النفس وسرعة تأثرها: فالنفس تتأثر بما حولها، وإليك وصف هذه المؤثرات في مقولة أخرى لابن القيم؛ يقول: «كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مُرْدٍ، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مُستَولٍ عليه؛ فإن من تولاها لله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة»(٢).

---

(١) الفوائد لابن القيم، ص٩٨.

(٢) الفوائد، ص٦٣.

واليوم ونحن في عصر العولمة والقرية الكونية، أضف إلى ما سبق ما تبثه الفضائيات ومواقع الإنترنت من المؤثرات في الفِكَر والسلوكيات، مع ما في العالم من سعار الشهوات، وغزو الثقافات، وشذوذ الانحرافات الخلقية، وشطط الشطحات الفكرية، ومع ذلك فالتربية والتهذيب الفكري والروحي والسلوكي هي سفينة النجاح، ومفتاح الصلاح؛ لأن تغييرها الإيجابي مؤذن بالتغيير العام؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٣ ـ استمرارية التربية: التربية بمفهومها السابق ليست مجرد معلومات تدرس، فهي ليست كالتعليم له في كل مرحلة مستوى ويتوقف. فالتعليم: معلومات، مهارات، وسائل، اختبارات، لكن التربية: تحويل معلومات التعليم ومهارات المعلم إلى: (نضج فكري، استقرار نفسي، تميز سلوكي)، ومعنى ذلك أن التربية مهمة مستمرة لا تتوقف عند زمن أو سن معين ولا عند مستوى محدد من العلم والإدراك.

«فالطريق طويل والمهمة صعبة، ومع ذلك، فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

٤ ـ حاجة الجميع إلى التربية: فالجميع صغاراً وكباراً رجالاً ونساء متعلمين وغير متعلمين محتاجون إلى التربية.

٥ ـ التربية مهمة الجميع: إنها مهمة منوطة بالآباء والأمهات، وواجبة على المعلمين والمعلمات، ولازمة للدعاة والداعيات.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ج١، ص٤٣.

ولعلي أختم مفهوم التربية وأوجّه صعوبتها بهذه الكلمات النافعة لابن القيم؛ إذ قال: «جهاد النفس أربع مراتب:

١ ـ أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق.

٢ ـ أن يجاهدها على العمل بهذا العلم الذي علمه.

٣ ـ أن يجاهدها على الدعوة إليه.

٤ ـ أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله.

إنها مهمة تصدَّى لها الأنبياء، واضطلع بها أئمة العلماء، وحمل عبأها الخلّص من الدعاة الأصفياء، إنها مهمة جليلة، غاياتها نبيلة، وآثارها جميلة، لكنها مهمة ثقيلة، ومع ذلك يدّعي الانتسابَ إليها جماهيرُ غفيرة، وأنتم معاشر الدعاة أهلها والقائمون بها فافهموها، واعرفوا ثقلها وتهيؤوا وتأهلوا لها.

تاسعاً: طرق وقاية الأبناء من آثار الانفتاح:

فكيف نحمي أبناءنا من هذا الانفتاح؟

١ ـ **أثر الأسرة في حماية الأطفال:** إن أثر الأسرة لا ينتهي عند وضع الطفل أمام الجهاز، ولا أن تنتظر من وسائل الإعلام أن تقوم بعمل المربي بالنيابة عنها.

إن الاهتمام بالطفل قبل السادسة والحفاظ عليه من كل ما يمكن أن يكون له أثر سلبي في شخصيته يندرج تحت عمل الأسرة الكبير، الذي يتمثل في تفعيل الأثر التربوي للأبوين، وتقنين استخدام وسائل الإعلام المختلفة داخل البيت، فلا يسمح للأطفال بالبقاء لمدة طويلة أمام هذه الوسائل دون رقيب، وتقليص الزمن بالتدريج، وأن تترك الأجهزة في مكان اجتماع الأسرة، بحيث لا يخلو بها الطفل في غرفته.

ويصبح من الضروري أن يشاهد الكبير مع الصغير، وأن يقرأ الوالدان مع الأبناء، ولا يترك الصغار هدفاً للتأثيرات غير المرغوبة لثقافات غريبة عن مجتمعنا العربي المسلم. ونقف نحن الكبار نشكو من الغزو الثقافي للأمة، فالرقابة على ما يعرض للأطفال، والبقاء معهم في أثناء العرض من أجل توجيه النقد ينمي لدى الطفل القدرة على النقد وعدم التلقي السلبي، ولا ينبغي أن تغفل وسائل الترفيه الأخرى كالخروج والنزهات واللعب الجماعي وغيرها، فلها أثرها في عدم المتابعة، وعدم الالتصاق بهذه الوسائل الإعلامية، وتقليل حجم التأثر السلبي.

٢ ـ أثر المتخصصين في أقسام برامج الأطفال: لا ننكر في هذا المقام الأثر الذي لوسائل الإعلام في إعداد البرامج المحلية بالاستعانة بتربوية استشارية ومتخصصين في أقسام برامج الأطفال، وإعداد المواد الإعلامية التي تتناسب مع المراحل المختلفة، وتطوير الإنتاج المحلي على أساس عقائدي وبيئي وتربوي يُناسب الأطفال وحاجاتهم.

إن على القائمين بالاتصال بالطفل عبر وسائل الإعلام عملاً كبيراً في الاهتمام بالطفل، وفي الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية لأطفالنا من خلال توفير البديل الإعلامي والثقافي الإسلامي، ليكون موجوداً جنباً إلى جنب مع المنتج الإعلامي الثقافي الأجنبي في عصر الفضاء وعصر المعلومات.

ويكون ذلك عبر إبراز التاريخ الإسلامي وأبطاله الذين تحفل الصفحات بأحداثهم وخبراتهم، وليكن القصص القرآني الكريم النبع الأول الذي تستقى منه هذه البطولات، وصور القدوة مثل قصة النبيَّين فرعون وموسى عليهما السلام.

ويمكن أن تحل شخصيات إسلامية مثل عمر بن عبد العزيز والأئمة الأربعة رحمهم الله وكبار العلماء والمسلمين محل «باتمان» و«سوبرمان» و«أبطال الديجيتال» في نفوس وعقول أبنائنا، فإن الأبناء عندما يعيشون في أجواء الصالحين سيكبرون وهم يحملون همهم وطموحهم وأحلامهم.

٣ ـ أثر الرقابة: ومهما بلغ حجم الدعوة لإطلاق الحريات؛ فإن على الدولة أن تتحرى الأمانة في اختيار الأنظمة التقنية المناسبة التي تحمي المجتمع قبل فوات الأوان، وأن تضطلع بمسؤوليتها كاملة في تقدير حدود الانفتاح والتوجيه والرقابة لتحقيق التوازن، كما أن مراقبة البرامج المستوردة تمنع ما يتعارض مع المثل والقيم الدينية والاجتماعية والحقائق التاريخية، والاتجاهات الفكرية الطبيعية المتعارف عليها.

وهكذا تكون وسائل الإعلام مطوعة للحفاظ على الموروث الحضاري، وتضيف إليه كل جاد ونافع بطرق فعالة تستولي على العقول، وتحول دون استلاب ثقافي إعلامي يهيمن على الطفل، ويدخل عليه بما يخالف دينه وقيمه وتقاليد بيئته ونشأته وعقيدته، وبذلك تكون وسائل الإعلام مؤثرة إيجاباً في تكوين اتجاهات الطفل وميوله وقيمه ونمط شخصيته، بما يعكس التميز والتنوع الثقافي العربي والإسلامي، حتى لا نكون أمة متفرجة في الصفوف الأخيرة، أمة قد تضحك من جهلها الأمم.

٤ ـ أثر العلم الشرعي: ينبغي أن نحرص كل الحرص على حث الأبناء على تعلم العلم الشرعي من عقيدة وما يتبعها من علوم كمعرفة المذاهب المعاصرة المخالفة للعقيدة الصحيحة، وما نقاط المخالفة فيها بالتحديد حتى يحذر منها، فالأبناء يسمعون بالشيوعية والعولمة والليبرالية وغيرها من المذاهب الهدامة،

ولا يعلمون ما المراد بها؛ لذا فإنه يجب إعطاء الابن نبذة تناسب سنه وفكره وعقله وفهمه وثقافته حتى يعرفها ويكون على حذر منها. ثم يبدأ الابن ـ إذا كبر وكان ذكياً ـ يبحث هو بنفسه ويقرأ وبحذر.

٥ ـ الأساسيات التي يزود بها الوالدان أولادهم منذ أول نشأتهم: التأذين في أذنه اليمنى والإقامة في اليسرى، وأن يبدأ تطبيق المفهوم العقدي منذ الصغر، أي منذ أن يبدأ الطفل بنطق بعض الحروف والكلمات يحاول الوالدان أن يلقناه الشهادة باستمرار، وعدم الكذب عليه حتى لا يتعلم هذا الخلق الذميم، وأمره بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وضربه عليها إذا بلغ العاشرة ولم يحافظ عليها، والتفريق بين الأبناء في المضاجع، وآداب الاستئذان، وتعليم أساسيات العقيدة (من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ أين الله؟) كل هذه الأمور التي كان الرسول ﷺ يعلمها ويطبقها.

٦ ـ عدم إيقاع الأبناء في الحيرة من أمرهم: وذلك بسبب تناقض الوالدين؛ فتجد بعض الآباء والأمهات يقولون ما لا يفعلون، فيجب على الوالدين أن يعلما الأبناء ويطبقا في الوقت نفسه حتى يرسخ المبدأ العقدي في ذهن الأبناء.

٧ ـ تحصينهم بأن نعلمهم سير الصحابة نساء ورجالاً: خاصة الشباب منهم لبيان كيف أنهم كانوا على قوة كبيرة من الثبات أمام المغريات أو التهديد والوعيد، كقصة سعد بن أبي وقاص ومصعب بن عمير وخبيب بن عدي وغيرهم كثير، رضي الله عنهم جميعاً.

٨ ـ زرع المراقبة الذاتية في نفوسهم: بتذكيرهم بالجنة والنار، فعندما يتصور الابن نعيم الجنة، وعذاب جهنم فإنه سيبتعد تلقائياً عن هذه الأمور حتى لا يحرم نعيم الجنة ولا يعذب بنار جهنم.

٩ ـ كذلك يبين للابن أن للمعصية شؤماً في الحياة: وأنه كلما زادت مراقبته لله بعدم النظر إلى هذه القنوات؛ فإنه سيزداد توفيقاً من الله وهداية ورزقاً وصلاحاً.

١٠ ـ البيان والتوضيح والتحذير والتنبيه: أن نخبر الجيل الناشئ بحقيقة الأمر، ونوضح لهم طريق الخير والشر، لأننا إذا سكتنا فقد يعلمون من خلال الأصدقاء أو القنوات وغيرها.

١١ ـ تقوية الوازع الديني: أي نربي فيهم الخوف من الله واحترام رسول الله ومحبته ﷺ كما يجب أن نترك لهم مجالاً من الحرية؛ لأننا إذا ضيقنا عليهم فسوف يسعون للخلاص من الأهل ويتهمونهم بالسيطرة والانغلاق، كما يجب دائماً على الأهل التكلم مع أبنائهم بسوى النصائح الحادة، أو (صليت؟ ـ أكلت؟ ـ ذاكرت؟).

لا بد بلا شك أن ننصحهم، ولكن لا نجعل كلامنا معهم فقط أوامر ونصائح، بل نقيم علاقة صداقة معهم.

١٢ ـ تقديم البدائل: مفهوم حيوي في التربية أن نعوّد أبناءنا على الاختيار بين بدائل عدة، فلقد انقضى عهد الإجابات الجاهزة والحلول المفصلة التي نمليها على أبنائنا: «افعل هذا فقط، وإن فعلت غيره فستتعرض للعقاب»، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفرض على أبنائنا أسلوب حياتهم، أو أن نختار لهم أي سبيل يسلكونه.

إن عملنا الأساسي هو تزويدهم بالقيم الإسلامية الصحيحة وتعريفهم بالحلال والحرام، ولكن الأهم أن نترك لهم مسؤولية الاختيار.

لا مكان لتربية تقوم على الإرهاب أو الزجر، بل لا بد أن يتدرب أبناؤنا منذ نعومة أظفارهم على الاختيار في أيسر الأمور مع تقويم هذا الاختيار، فمن المهم أن يعبروا عن آرائهم وميولهم واهتمامهم.

إن إعطاء الأبناء المسؤولية في الاختيار هو الأساس الذي سيكسبهم القوة والعزيمة في مواجهة كل ما يخبئه لهم هذا المستقبل الممتلئ بالمفاجآت الثقافية والاجتماعية والسياسية.

١٣ ـ طرح الأسئلة: يعد التساؤل والنقدُ الأساسَ الأول في تكوين شخصية حرة مسؤولة قادرة على اتخاذ القرار.

فما الفائدة التي تعود علينا إذا ما قمنا بكبت أسئلة أبنائنا، أو ألغينا عقولهم فحرمنا عليهم نقد كل ما يدور حولهم من أمور تتحدى تفكيرهم، سواء داخل الأسرة أو خارجها في المجتمع؟!.

إن علينا أولاً أن نعيد تربية أنفسنا كآباء وأمهات حتى يتسنى لنا إجراءُ مناقشات مثمرة مع أبنائنا، مناقشات تنمي عقولهم وتدعم إحساسهم باستقلالهم في الرأي. وعلينا أن نطبق معهم مبدأ «قبول الآخر» الذي نتشدق به دون أن نعرف معناه. تقبل الأبناء (الآخر) يعني أن ننزل إلى مستواهم، أن نتخلى عن غرورنا، أن نشعر بكمّ التناقض والبلبلة التي يعانون والتي لم نخبرها في الأجيال السابقة.

ومن المهم أن ندرك أن من حق الابن أن ينقد كل شيء يدور حوله ويثير لديه الشك أو التعجب، ما دام ذلك يتم باحترام ومراعاة لسلوكيات الحوار البناء. من حقه أن يتحدث معنا عن بعض أخطائنا، فنحن كآباء لسنا معصومين من الخطأ. فمن حقه أن يحصل على ثقافة تمس جميع أمور الحياة حتى الجنسية منها.

١٤ ـ التعلم بالخبرة: ويتفق مع ما عرضناه سابقاً ما يدعى التعلم بالخبرة. إن كثيراً من الآباء يعتقدون أنه من الأفضل أن يقدموا لأبنائهم خلاصة تجاربهم جاهزة فيوفروا عليهم الجهد والتعب وسنوات العمر. ولكن في واقع الأمر لا يقتنع الأبناء، من واقع خبرتي التربوية، بكثير من هذه النصائح ما لم يمروا بالخبرة بأنفسهم، ويخرجوا بنتائجهم الخاصة التي تصبح فيما بعد جزءاً محفوراً في شخصيتهم، ويصدق هذا بوضوح في عصرنا الحالي.

فلا بد أن نعترف أن خبراتنا مختلفة تماماً عن خبرات أبنائنا، وأن نعترف أيضاً أن هؤلاء الأبناء يعرفون الكثير مما نجهله.

ونعني بوضوح أن نسمح لهم بقدر الإمكان بالمرور بالكثير من الخبرات حتى ولو ترتب على هذا بعض الخسائر اليسيرة.

فمرور الأبناء بالخبرة تحت نظرنا وسمعنا أفضل من مرورهم بالخبرة نفسها وهم متوارون عنا مفتقدون نصيحة الخبراء والحنان الذي يحتاجونه عند النجاح أو الإخفاق في أي تجربة.

١٥ ـ التعلم من خلال حل المشكلات: ومثله مثل المبادئ السابقة، يأتي مبدأ التعلم من خلال حل المشكلات كأحد الوسائل التربوية التي يمكن أن نستخدمها لندعم تربية أبنائنا. فعلى صعيد التربية الأسرية، يعني هذا المبدأ التخلي عن المفهوم التقليدي الذي يرى أنه من الأفضل أن نعزل أبناءنا عن مشكلات تفوق مستواهم العمري والعقلي ونتركهم وشأنهم ليمارسوا ما يتماشى مع أعمارهم من نشاطات وخبرات. وفي واقع الأمر، فإن إبعاد الأبناء عن المشكلات الحقيقية في الحياة يفقدهم الشعور بالثقة بالنفس، كما يعطيهم مفهوماً سطحياً عن الحياة يتحطم في أول لقاء لهم مع متاعبها وأهوالها.

١٦ ـ الاعتراف بالأخطاء: من الأخطاء الشائعة الموروثة التي يقع فيها الآباء محاولة الظهور أمام أبنائهم بمظهر الشخص المعصوم من الخطأ، الصائب القرارات، المنزه عن أي اعتراض. وكلنا يعرف أن هؤلاء الآباء كانوا فيما مضى شباباً يعانون ويمرون بمثل ما يمر به أبناؤهم من أخطاء.

إن الكثير من الآباء والأمهات قد أخطؤوا في كثير من القرارات التي اتخذوها فيما مضى، بل إن كثيراً منهم ما زالوا يرتكبون أخطاء كثيرة في حياتهم اليومية. وفي المقابل فإنهم يحرّمون على أبنائهم مناقشة أي من هذه الأخطاء أو حتى مجرد ذكرها. ولنا أن نتصور كم التناقض والصراع الذي يمكن أن يشعر به المراهق حين يرى تصميم الأب أو الأم على الظهور بهذا المظهر الأسطوري، في حين يدرك هو بعمق وبنظرته الثاقبة وبذكائه المتقد الكثير من أوجه النقد التي يأخذها على والديه، والتي تبدو جلية للعيان.

وتؤكد كثير من الخبرات والبحوث التربوية أن كثيراً مما يعانيه المراهق من أزمات يعود إلى هذا السد المنيع بينه وبين والديه.

هذا السد الذي يفرض عليهم احتراماً مزيفاً لا يقوم على الاقتناع والاعتراف بالطبيعة الإنسانية بكل ما تحمله من ضعف وقصور.

والنتيجة الوقوع في الأخطاء وعدم الاقتناع العميق بكثير مما يتشدق به الوالدان من مثُل وقواعد لا تنزل لمستوى المراهق ولا تعكس ما يجري حوله في الواقع المعاش.

١٧ ـ الإنصات الجيد: وآخر المبادئ التي أريد التنويه عنها هنا: مبدأ الإنصات الجيد لأبنائنا. الإنصات لا يعني مجرد أن نفتح آذاننا للمراهق؛ ولكن

الإنصات هنا يعني في جوهره اللقاء بين القلوب والعقول الذي يحاول فيه الوالد أن يهبط إلى مستوى المراهق، وأن يخبر مشاعره حتى ولو شابها التناقض والخطأ.

ليس عيباً أن نخطئ، ولكن العيب أن يظل هذا الخطأ سراً مكتوماً في نفوسنا لا نراه إلا على صفحات المجلات والمواقع الإلكترونية.

أخطاء بشعة وقع فيها الأبناء لأنهم لم يجدوا من يستمع لهم بحب، دون إرهاب أو تخويف أو إذلال. إن تدارك الخطأ في بدئه أسهل بكثير من تداركه بعد تفاقمه ووصوله إلى حدود لا يمكن أن يصل إليها عقل شخص مسلم عربي.. أخطاء جسيمة وفضائح بين الفتيات والفتيان يشيب لها الشعر..

ونتأمل متسائلين:

ـ هل هؤلاء الأبناء هم نتاج أسرنا الإسلامية المحافظة؟

ـ هل ذاقت هذه الفتاة الضائعة أمام أول كلمات فتى وجدته على النت حنان الأم وصداقتها الحقيقية؟

ـ هل تحدث هذا الفتى المشدوه أمام الصور الجنسية مع والده، وعرف أنه إنسان مر بمثل هذه التجارب من قبل؟

ـ هل عرف هذا الفتى أو هذه الفتاة اللذان يمارسان أشياء شائنة كيف يفكران وينقدان ويختاران منذ نعومة أظفارهما؟

إن علينا أن نعيد النظر في أنفسنا كمربين لنرى أين الخلل. كما يجب أن ندرك جيداً أن تربية الأمس لم تعد تكفي اليوم، وتربية اليوم لن تكفي للغد. وعلينا أن نربي أنفسنا من جديد ونتخلى عن غرورنا.

ففلذات أكبادنا وصلاح مجتمعنا يستحق منا الكثير من التفكير، والكثير من التضحية، والكثير من النقاش والحوار.

عاشراً: الوسائل الكفيلة بتربية صحيحة:

نعرضها من خلال عدة نقاط:

١ ـ مهما تطور الزمن وزاد الانفتاح، فهو لا يعدو أن يكون حلقة متجددة مما عاش عليه أسلافنا، ومن ثم فعلينا أن نعي أن هناك طبقات من المجتمع ما زالت تمارس التربية الصحيحة في زمن الانفتاح، وأن وعيها بما تعيشه زادها إصراراً في المضي قدماً نحو التربية الصحيحة.

٢ ـ الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ومن ثم فعلى المربين أن يحسنوا الاستفادة من الانفتاح، فالكلمة التي كانت تؤثر في دائرة صغيرة أصبح يسمع لها صدى في أرجاء المعمورة، وتطبيق الفِكَر التربوية تعدى المحيط الصغير إلى الفضاء الواسع.

٣ ـ إن غرس معاني المراقبة الذاتية من أعظم المعاني التي على المربين أن يتقنوها في أنفسهم ويغرسوها في الآخرين، فهي العاصم بإذن الله.

٤ ـ العمل على إيجاد المحاضن التربوية أو استمرارها إن وجدت، فهي تمثل البيئة المشجعة للاستفادة من التربية وتواصلها.

٥ ـ بالنظر إلى حال الأمة بمجمله في ظل أجواء الانفتاح نرى أنها بخير، وأنها تسير في الاتجاه الصحيح، فالانفتاح ربما أثر سلباً في الأفراد كأفراد، ولكنه أثر إيجاباً على المجموع العامل للأمة، فبموازنات يسيرة يمكننا أن نقيس التقدم نحو الأمام في ظلال المغريات والانفتاح الموجود.

٦ ـ مهما بحثنا في الوسائل وسعينا في شتى الطرق سنرجع في نهاية المطاف، إلى أن التربية الإيمانية وممارستها وتأكيدها، هي الحامي بإذن الله من كل انفتاح سلبي.

٧ ـ ينبغي الاستفادة من الانفتاح بتوسيع دائرة التأثير التربوي، وتبادل الخبرات والتجارب، والاتجاه من التأثير في الفرد إلى التأثير في الأمة، ومن ثم اختيار أكثر الوسائل فائدة في هذا الاتجاه.

٨ ـ من إيجابيات الانفتاح أنْ نحفز المربين على تطوير أدواتهم وأساليبهم والاستفادة من كل جديد.

٩ ـ لا بدّ أن نعي أن الوصول إلى التربية الصحيحة يستلزم البذل والعطاء وتربية النفس قبل تربية الآخرين، والثبات على طريق التربية الصحيحة مهما تراجع الآخرون.

١٠ ـ إن كنا نتحدث اليوم عن الإغراءات والانفتاح، فعلينا أن نعي أن ما هو قادم سيكون أكثر انفتاحاً وتطوراً وتأثيراً.

١١ ـ لا بدّ لنا أن نتذكر أن الفطرة السليمة تعود إلى أصلها ولو بعد حين، ولذا يبقى علينا الصبر والعطاء، والبحث عن كوامن الخير في هذه الفطرة السليمة.

١٢ ـ علينا أن نتذكر أن من يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم، وأن النفع المتعدي أكثر أجراً من النفع الذاتي، ولنحذر من إساءة الظن بالجمهور العريض من الشعب، شباباً وبناتٍ، رجالاً ونساءً، والاقتراب من مجتمعنا، ونتجنب بناء أسوار عالية بيننا وبين أهلنا.

١٣ ـ أن نتعلم كل جديد، ونعرف كيف نسخره لخدمتنا، فليس من المنطقي أن يكون هناك دعاة وإلى اليوم لا يجيدون استخدام الكمبيوتر، فلا بد أن نهتم بهذا الجانب اهتماماً كبيراً.

١٤ ـ أن نقتحم المجال وبقوة وخاصة (الإعلامي) لأن الإعلام هو بريد الانفتاح الذي يبث خيره وشره، نتردد ونخاف كثيراً من الإخفاق أو من عدم

توفر الإمكانات، ولكن هناك قاعدة أصيلة ومجربة وأكيدة المفعول، وهي (إذا أردت.. فسيكون إن شاء الله).

١٥ ـ مراجعة المنهج الدعوي، وإخضاعه للحذف والإضافة بما يتوافق مع المتطلبات الأساسية للهدف المنشود، مع مراعاة الثوابت والمتغيرات.

١٦ ـ إصدار دوريات ونشرات حول الموضوع؛ كسلسلة متتابعة يتزود منها العاملون، ويطرح فيها كل جديد.

١٧ ـ الاستفادة من المجتمع نفسه؛ إذ إنه يدخل في دائرة التثقيف من خلال الديوانيات والوعظ العام، حتى لا يقف في طرف المستغرب المستهجن.

١٨ ـ عمل مسح ميداني للوقوف على الحال الذي وصل إليه الجيل والأسباب، ومن أين نبدأ وماذا نريد.

١٩ ـ الالتفات بخصوصية تامة وبهمة عالية لوضع المرأة، والسعي الحثيث إلى إدراجها بقوة ضمن برامج التربية والتنمية، فهي ركن مهم وخطير.

٢٠ ـ السعي الحثيث إلى فتح رياض الأطفال والمدارس الأهلية التي «من خلالها يسهل كل صعب ويلين كل قاس»، كما يقول الدكتور عبد الكريم بكار.

٢١ ـ ألا نغفل عن أثر البيت والمسجد والمدرسة في التربية؛ لأنها هي القنوات الثلاث الأولى التي يبدأ منها التغيير والتأثير الإيجابي.

٢٢ ـ الاستعانة بالوحيين[١]، ووضع برامج عملية لتطبيق هذا البرنامج على أرض الواقع، فإذا وجد الابن الداعية القدوة متمثلة أمامه أولاً في والده وفي أخيه فسيكون له قدوة في ذلك.

---

(١) محفظ الوحيين: يتيح لك إمكانية حفظ القرآن الكريم بالقراءات بالرسم العثماني، والسنة النبوية، والمتون بطريقة سهلة. كل ما عليك هو اختيار وقراءة النص وسماعه من

وأخيراً علينا أن نتذكر أن لكل شيء وجهين. وللانفتاح وجه إيجابي يمكن عرضه في النقاط التالية:

١ ـ سرعة تبادل التجارب التربوية من مختلف أرجاء المعمورة؛ ما يساعد على تكوين قاعدة بيانات متكاملة للتجارب التربوية.

٢ ـ اتساع دائرة تأثير المربي وفق أدوات الانفتاح التي يستخدمها، ووصول صوته التربوي إلى الكثير دون أن يشعر.

٣ ـ الانفتاح يساعد على تعدد الآراء التربوية، ومن ثم تقبل ما لدى الآخرين من آراء تربوية.

٤ ـ إمكانية التواصل اليومي الدائم بين المربي والمتربي من خلال دوائر الانفتاح المختلفة المتنوعة.

٥ ـ مساعدة دوائر الانفتاح في إبراز الرموز التربوية، مما يعزز من أثرها ويعمل على زيادة دائرة تأثيرها.

٦ ـ تواصل أجيال المربين بمختلف أعمارهم وخبراتهم من خلال دوائر الانفتاح.

ـ التربية ثم التربية ثم التربية:

يا معاشر الدعاة، اقدروها قدرها، واعرفوا أهميتها، فذلك طريقكم لمواجهة الانفتاح وما وراء الانفتاح. أين أنتم ـ معاشر الدعاة ـ من القدرة على مواجهة العقبات؟! وكثيرون قد استكثروا من المباحات، وشغلوا بالأبناء والزوجات، وألفوا الكسل، وعافوا العمل، حتى ركنت لذلك نفوسهم، وقنعت به همومهم، وذلك نتيجة حتمية لمن ترك تزكية النفس بالطاعات، وطهارة القلب بالقربات،

القارئ ثم تسجيله بصوتك في حين يختفي النص. بعد الانتهاء من التسجيل يقوم التطبيق بعرض النص مرة أخرى وإظهار الأخطاء لتصححها.

ومن المعلوم «أن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين، ونفوراً عن المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورُضْها وسُسْها على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ كل صغيرة، علّمها التحليق تكره الإسفاف، عرّفها العز تنفر من الذل، وأذقها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة»[1].

❋❋❋

(١) الرقائق، ص٥١.

الباب الثاني
وصايا لقمان ومكانتها في التربية المعاصرة

قصص القرآن أصدق القصص كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لاشتمالها على موافقة الخبر للحدث وهي أحسن القصص، كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، لأنها احتوت على أعلى درجات البلاغة الأسلوبية، والفصاحة اللفظية، والجلالة المعنوية.

وهي أنفع القصص كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]؛ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق، فلا تساق هذه القصص البديعة للتسلية ومعرفة الحدث مجرداً، وإنما يؤتى بها لخير يُتّبع، وهدي يستمسك به، أو لشر يُجتنب، أو مثَل سوءٍ يبتعد عنه، أو مثل حسنٍ يقتدى به، وهي تناسب مع كل عصر وزمان.

وليس أحق في هذا الصدد أن يذكر من القصص القرآني من وصايا لقمان لابنه؛ التي اشتملت على قيم ومبادئ باتت من الأهمية بمكان في هذا العصر الذي ضاقت فيه السبل عن الأساليب التربوية المعاصرة؛ التي أجحفت بحق هذه الأجيال من أبنائنا إجحافاً أصبح من خلاله المربون يشعرون بالحياء والخجل تجاه هذه الأجيال التائهة في ركب الحضارة؛ التي أعلت من قيمة كل شيء في هذا

الوجود، وحطّت من قيمة الإنسان وكرامته وحصانته الإنسانية، فأصبح أخلاقياً أصعب من أن يوصف...!

إن وصايا لقمان لابنه وهو يعظه ـ هي بحق ـ رافداً أصيلاً للأساليب التربوية المعاصرة لو أننا حاولنا فهمها على ضوء المعطيات العلمية والأخلاقية في هذا العصر الجانح عن حكم الله وأمره.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

هذا نموذج فريد من القصص القرآنية يحكي قصة العبد الصالح لقمان في سورة سميت باسمه؛ إعلاء لشأنه، ذكر الله فيها ما جرى له مع ابنه من حديث مؤثر في التربية والنصيحة، وقد صُدِّرت هذه السورة الكريمة بإشارة تلميحية إلى تميز قصص القرآن الكريم على قصص غيره؛ إذ تورد القصة القرآنية لهداية الناس، وتبصيرهم طريق الحق، بخلاف قصص ما سواه، ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦] إيماء إلى القصاصين الملهين للناس، المعرِضين بهم عن القرآن

كالنضر بن الحارث الذي كان يسافر إلى بلاد الفرس ويقتني كتبَ قصصِ ملوكهم، ويأتي مكة يحدث بذلك؛ ليشغل أهل مكة عن سماع رسول الله ﷺ.

فبينت السورة بهذا التصوير أن القرآن في قصصه يشتمل على ما فيه هدى وإرشاداً للخير، ومُثُل الكمال، فجاءت بهذه القصة لتكون أنموذجاً عن هذه المقاصد الشريفة من القصص.

إن تربية الجيل أمانة عظيمة، تتطلب تضافر الجهود ابتداء من البيت الذي يعد عنصر التأثير والتأثر الأول في نفس النشء، فتربية الأولاد مهمة تقف على كاهل الأب والأم؛ لكونهما راعيين عمن استرعاهما الله عليه، فالأب راعٍ في بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها، كما قال نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام.

إن لقمان كان رجلاً حكيماً، حُفظت عنه حِكم كثيرة، خصوصاً في تربية الولد. وفي هذه الآيات بعضٌ من تلك الحكم، فقد اجتمعت في هذه الآيات الكريمة من وصيته لابنه أمثلة من أصول الشريعة كلها، وهي: الاعتقادات والأعمال والآداب، فما أحوجنا إليها تعلماً وتعليماً وعملاً.

إن نعم الله على عباده كثيرة متنوعة، ومن أعظم هذه النعم: الصواب في المعتقدات، والفقه في الدين، والعلم والعمل والفهم الصحيح، وهذه هي الحكمة، ومن يُرزقُها فقد رزِق خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهذه العطية الحسنى لن تدوم ولن تزيد إلا بشكر واهبها قولاً وفعلاً بتحقيق نتائجها في الإصلاح لا الإفساد.

والله تعالى غني غنىً مطلق لا يحتاج الشكر ولا ينفعه حصوله، وإنما عائد ذلك الشكر على الشاكر ببقاء النعمة وزيارتها؛ ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

إن محبة الولد والشفقة والحرص عليه فطرة وجبلة في قلب أبويه؛ ولذا فهما يحرصان على جلب ما يسعده ودفع ما يضره، ولكن للأسف ـ يا عباد الله ـ فقد اقتصر فهم كثير من الناس في إسعاد الأولاد على توفير الطعام والشراب والكساء والدواء والمسكن وغير ذلك من حاجات الجسد، ولا ينظرون إلى أهم من ذلك كله وهو إسعاد الروح وإصلاح السلوك، فأقل الناس من يفعل هذا.

لقد قام لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ بوعظ ابنه مرغّباً ومرهباً ـ وقبل أن يزرع فيه بذور الخير والصلاح ـ أراد أن يزيل ما في نفسه من الشر حتى تخلو وتصفو، وبعد ذلك يضع ما يريد من الخير. وإن أعظم الشر: الشرك بالله تعالى والكفر به، بصرف شيء من حق الله لغيره، وهذا هو الظلم العظيم حقاً؛ فلا أظلم ممن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب!

وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من المنعم؛ الذي ما بالخلق من نعمةٍ في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!

روى الشيخان في صحيحهما عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟!

قال: «ليس كما تقولون ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[1]؟!

ومن هنا تبدأ وصايا لقمان بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

لا حقَّ أوجب تأديةً بعد حق الله من حق الوالدين اللذين كانا سبب الوجود للولد في هذه الحياة؛ ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحقهما في آيات من القرآن الكريم، كهذه الآية؛ لأن لله تعالى نعمةَ الإيجاد، وللوالدين نعمة التربية والإيلاد.

إن بر الوالدين فريضة في كل الشرائع والأديان، ويأمر بها العقل السليم ومنهج العدل القويم، وردُّ الجميل والمعروف.

فكم قدّم الوالدان من كفاية ورعاية وعناية، وتحملا من شقاء وعناء، وحرمانٍ من هناء، تعبا ليستريح الولد، وسهرا لينام، وبذلا ليستغني، وجاعا ليشبع، وعطشا ليروى، تتسع الحياة بهما إن ضحك وسلِم، وتضيق عليهما إن حزن أو سقِم، وكل تعب تحملاه، وكل عطاء قدماه؛ ليكبر ويحيا. أفلا يستحقان بهذا طاعةً وخفضَ جناح، وكلمة لينة، ورداً جميلاً، وإحساناً ورحمة، وبراً ورعاية؟.

ألا ما أفظع العقوق وأسوأ فعله! وآكد عاقبته وعقوبته، يوم يقلب العاق ـ ابناً أو بنتاً ـ لوالديه ظهر المجن، ويكفر المعروف، فيرفع صوته فوق صوت أبيه، ويميل إلى العطوف الرؤوم؛ إلى أمه فيسقي خدودَها دمعَها الهتان[2]؛ جراءَ عصيانه وعقوقه، وقد يتعدى ذلك السوء إلى الضرب والإهانة!

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٩٢).

(٢) هتن الدمع: سال وجرى قطرة قطرة.

ألا فليحذر العاق، وليستدرك قبل نزول العقوبة وفوات زمن الاستدراك، وليبشر البار المحسن بسعادة الدنيا ونجاة الآخرة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قول الزور»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2]؛ ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

أين يذهب الإنسان العاصي عن علم الله ونظره؟ هل هناك أرض غير أرضه؟ وكون غير كونه، وملك غير ملكه؟ حتى يتمكن من فعل معصيته دون رؤية خالقه ونظره وعلمه؟!

أيها الإنسان! راقب حركاتك وتصرفاتك أن تزل أو تضل؛ فهناك من يرقُب، فلا تستصغر ذنباً تعصي الله به وتقول: إنه صغير حقير، فكل ذلك مسجل عليك لا يفوت اللهَ منه شيئاً، والصغير بالتواتر كبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وأنت أيها الطائع! لا تحتقر المعروف لصغره وقلّته، فإن فعلته فتيقن أن ذلك لن يذهب ما دام خالصاً صواباً، بل هو مسجل لك عند المحيط بكل شيء سبحانه،

---

(١) رواه البخاري: ٥٢٧.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢٥١١.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

ولهذا قال لقمان لابنه واعظاً: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

إن الصلاة هي أكبر العبادات البدنية، وعمود الإسلام وعماد الأعمال، وأعظم الطاعات وأدومها، وفريضة السماء، وأحب الأعمال إلى الله، وهي كفارة الذنوب ومحرقتها، ومهذبةُ النفوس ومُصلِحتُها.

الصلاة اعتراف بطاعة الله، وطلب الاهتداء للعمل الصالح، الصلاة اتصال بالله وقربٌ منه ومناجاة وابتهال، الصلاة تواصل مع العبادة، وهجر لمشاغل الدنيا وإقبال على الآخرة.

الصلاة في حقيقتها ليست حركات جوفاء، وعادةً تُؤدى بأفعال محدودة ويُنتهى منها، إن الصلاة بتلك الحركات التي لا معنى لها صلاة ميتة، أما حياة الصلاة فباستعدادٍ قبلها، وتوجهٍ في أثنائها، وتأثر بعدها.

فالمصلي الحي يجمع في صلاته حضورَ القلب، وتفهّم معنى الكلام المتلو أو المسموع، واستحضار تعظيم الله وهيبته، من معرفة جلال الله تعالى، ومعرفة حقارة النفس واستعبادها لمعبودها الجليل، فإذا سمع المسلم النداء لها تذكر النداء للقيامة فلينظر ماذا يجيب، وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه، وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق تعالى.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه عن كل شيء إلا إلى الله وحده، فإذا كبّر استشعر بحسه وفعله أن

الله أكبر من كل شيء؛ فلا يقدم عليه شيئاً، وإذا ركع استشعر في ركوعه التواضع والعبودية، وفي سجوده الذل والانكسار للعظيم سبحانه.

فمن أراد الفلاح يوم المزيد فعليه إقامة الصلاة في أوقاتها بأركانها وشروطها وواجباتها، وسننها وخشوعها وحقيقتها.

وعلى الوالدين أن يعلّموها الأولاد ذكوراً وإناثاً، كما قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»[1]. ولهذا قال لقمان لابنه موصياً: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الدين، وهو المهمة التي ابتعث الله لها المرسلين، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فبهذه الشعيرة صلاحُ الدين والدنيا، فلو تُرك الناس وأهواءهم لكثر الفساد، وخربت البلاد، وطغى العباد، فنزل العذاب والنقم، ورفعت الخيرات والنعم.

إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس وظيفة ينهض بها بعض الناس، بل كل مسلم مأمور به على قدر علمه واستطاعته؛ ولهذا جاء هذا العمل العظيم من أوصاف هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

---

(١) رواه أبو داود، رقم الحديث: ٩٦٧.

(٢) رواه مسلم: ٧٣.

يقول أبو حامد الغزالي مبيناً عظم شأن هذه الشعيرة وخطر التخلي عنها: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طُوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفترة أي: الجاهلية، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد».

ولما كانت هذه المهمة الشريفة تخالف أهواء الناس وشهواتهم؛ فإنها تجرّ إلى صاحبها معاداةَ الناس وأذاهم؛ لذلك كان على الآمر والناهي التذرعُ بالصبر وعدم الجزع، وهنا لقمان رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي ولده قائلاً: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

إن تهذيب النفس وإصلاح عوجها، وتحسين علاقاتها مع الناس، وإكسابها الآداب الفاضلة، والأخلاق الكاملة، وإزالة رذائل صفاتها أمور في غاية الأهمية، فمن أصلح علاقته مع الله بأداء حقه من الطاعة والانقياد، ومع خلق الله بإيفائهم ما يجب لهم عليه، وترك مطالبتهم بما ليس له فيه حق، فقد سعد ونجا.

وما أحسن أن يكون الإنسان محبوباً عند الله وعند خلقه، وما أبغض أن يكون مكروهاً مرفوضاً في السماء والأرض.

إن النفوس قد طُبعت على محبة من يتواضع لها ولا يتكبر عليها، ولا يسعى مفتخراً مؤذياً لها. فالتواضع ـ معشر المسلمين ـ خلق كريم يجيء الإنسانَ من معرفته حقيقةَ نفسه؛ فمن نظر إلى نفسه بعين بصيرة وجد فيها عيوباً كثيرة تدعوه إلى أن لا يغترّ على غيره وعنده تلك الآفات الكبيرة. فالمتواضع لين الجانب، لطيف الخطاب، متودد إلى الناس، حسن الخُلق معهم، محسن إليهم،

كريم المعشر، سهل المعاملة، ينزل الناس مقاماتهم ولا يحتقرهم، يقبل الحق ممن جاء به ولو كان أدنى منه في جميع منازل الدنيا، يخدم نفسه ويساعد أهله في مهمات البيت وحوائجه.

إن مشى، مشى مشية معتدلة لا يتبختر ولا يتماوت، وإن جلس، جلس جِلسة مستوية حيث انتهى به المجلس ولا يتخير رؤوس المجالس ووجوهها، وإن تكلم لم يتفيهق ولم يتشدق، ولم يثرثر ويرفع صوته، فكلامه حسن اللفظ، جميل المعنى، معتدل الصوت.

وإن لبس، لبس ما وجد، فلم يتكلف أو يتشبع بما ليس عنده في لبس الرخيص من الثياب والنفيس منه، ولكنه لا يقصد به علواً على الآخرين وكسراً لقلوبهم، ولكن ليحدِّث بنعمة الله عليه؛ ولأن الله جميل يحب الجمال، فبهذا أحبه الناس وسوّدوه عليهم ورفعوه بينهم.

أما الكبر فما أسوأها من شيمة، وأقبحها من صفة ذميمة، يرى المتكبر نفسه بين الناس كالطائر العالي في السماء، ولا يدرك أنه كلما ارتفع صغر في أعينهم، كذلك المتكبر يردّ الحق، ويحتقر الناس، ويصعّر وجهه وينظر شزراً إليهم، يحب أن يحترمه الناس ويعرفوا مكانه ولو بغير الحق، إن تكلم رفع صوته من غير حاجة، وبحث عن أوابد الكلام وغرائبه؛ حتى يقال: ما أبلغه وما أعلمه!.

وإن لبس، لبس لباس الشهرة وجر ثوبه خيلاء، وأعجب بما لديه، وإن جلس جلس مترَفِّعاً على الآخرين، يتخير أماكن محددة، فحركاته وسكناته، وقيامه وقعوده، وسكوته ونطقه، ومشيه ووقوفه إعجاب بنفسه، واستصغار لغيره، وكل متكبر مقلّ من هذه الصفات أو مستكثر.

ما أجهلَ المتكبر وأحقر نفسه! أراد أن يرتفع فوضع، وأن يعز فذل، وأن يتميز فغاب عن مشهد الاحترام، فما أحراه ببغض الناس وإبعادهم!

ما أحسن ما وصف الله المتواضعين ومدحهم فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وما أعظم جزاءهم في قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وما أخوف ما جاء في حق المتكبرين من الوعيد، كقوله عليه الصلاة والسلام: «تحاجت النار والجنة، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين...»[1].

فمن أراد أن ينفي الكبر عن نفسه، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ففيها القدوة والكفاية.

وهنا لقمان يربي ولده على التواضع، ويحذره وسائل الكبر والغرور فيقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩].

ما أجمع هذه الوصايا، وأجمل هذا التعليم، وأحسن نتائج هذه الحكمة، وأسعد من تمسك بها، فأحرِ بنا أن نتعلمها، ونعلمها أبناءنا وبناتنا في هذا العصر، لننال السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة.

(١) مسلم: ٢٨٤٦.

الفصل السابع

الباب الأول: الفوائد التربوية المستفادة من سورة لقمان.

الباب الثاني: نظرات بيانية في وصية لقمان لابنه.

الباب الأول
الفوائد التربوية المستفادة من سورة لقمان

هناك فوائد مستفادة من هذا السياق المبارك بدءاً من قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ إلى نهاية ما قصَّه الله تبارك وتعالى من مواعظ ووصايا لقمان الحكيم ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ ومن باب الإفادة والتعليم سنتحدث عن هذه الفوائد على ضوء وصايا لقمان لابنه:

١ ـ الفائدة الأولى: إنَّ الحكمة مِنحَةٌ ربَّانيَّة وهِبةٌ إلهيَّةٌ يُؤتيها الله جلَّ وعلا من شاء من عباده، وهذا مستفادٌ من قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾، فالحكمة منَّةُ الله جلَّ وعلا يمُنُّ بها على من شاء من عباده، ولهذا إذا أرادَ العبد أن يُوفَّق إلى هذا الأمر وأن يوفق لكلِّ خيرٍ؛ فإن الخيرَ بيدِ الله والفضلَ بيدِ الله ﷻ يُؤتيه مَن يشاءُ، والله ذو الفَضل العظيمِ.

ولهذا لا يُنال الخيرُ إلَّا بالصِّدق مع الله، وحُسنِ الإقبالِ على الله جل وعلا والقيامِ بطاعتِه وطلبِ التوفيق منه والالتجاءِ في تحصيلِه إليه؛ فإن الهدايةَ بيده والتَّوفيقَ بيده، والمنة منة الله والفضل فضل الله جل وعلا يؤتيه من يشاء.

٢ ـ الفائدة الثَّانية: أنَّ نَيْل الحكمةِ لا بدّ له مِن أسبَاب؛ حتى ينال العبد بذلك الحكمة، ومَن يتأمَّل قصَّةَ لُقمان الحكيم وأيضاً يتأمل حياته يجد أنَّه عبد صالحٌ عابدٌ لله جلَّ وعلا مُقبلٌ على طاعة الله، أحسنَ في صِلتَه بربِّه.

وذُكر في ترجمتِه ـ كما ذَكر الحافظ ابنُ كثير وغيرُه من أهل العلم ـ : أنَّه كانَ رجلاً صالحاً ذا عبادةٍ وإقبالٍ على الله جلَّ وعلا، وصدقٍ، وكان قليلَ الكلام كثيرَ

الفِكرة والتَّدبُّر، وكانَ يستفِيدُ من مجالس الخَير. ويأتي في وصاياه أيضاً الحثُّ على الاستفادة من مجالس العلم ومجالس الخير. ومن وصاياه المأثورة الوصية بمُشاورة العلماء، والاستفادة من أهل العلم؛ فالشَّاهد أنَّ بذلَ العبدِ للأسباب النَّافعة المقرِّبة إلى الله تبارك وتعالى ينال به الخيرَ والفلاحَ، وينالُ به الحكمةَ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله»[1]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَه»[2].

لا بدّ من بذل السَّبب، ولا يكفي أن يقول العبدُ: اللَّهم آتني الحكمةَ، أو اللَّهم إنِّي أسألكَ العلمَ النَّافع والعملَ الصَّالحَ دون بذلٍ منه للأسباب؛ بذل الأسباب لا بد منه «احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله»[3]، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلا بدّ من بذل الأسباب النافعة المشروعة لنيل الحكمة؛ وهي العلم النافع والعمل الصالح، ووضع الأمور مواضعها.

٣ ـ الفائدة الثالثة: مما يستفاد من هذا السياق المبارك: أهمِّية شُكر نِعَم الله وعظيم أثَره في ثبات النِّعمة ودوامِها.

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾، فشكر النعمة هذا له أثر عظيم على العبد في ثبات النعمة ونمائها وزيادتها، والنِّعمة إذا شُكِرت قرَّتْ، وإذا كُفِرت

---

(١) رواه مسلم: ٢٦٦٤.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١٩/٣٩٥.

(٣) صحيح مسلم: ٢٦٦٤.

فرَّتْ؛ ولهذا يسمِّي بعضُ العلماء الشُّكرَ: «الحافظَ»، ويسمونه «الجالِبَ»؛ يقولون لأنَّه يحفَظ النِّعمَ الموجودة ويجلِبُ النِّعم المفقودةَ، وهذا يدل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: اشكر لله على نعمتِه عليكَ ومَنِّه وإكرامِه.

ومِن إكرامِه ﷻ لهذا العبد الصَّالح أن آتاه الحكمةَ ووفَّقه للعِلم النَّافع والعمل الصَّالح، وهذا السياق المبارك يدلنا على أنَّ العبدَ إذا وُفِّق للعلم ووفق للعمل ووفق للخَير أن يكون دائماً وأبداً شاكراً لله ﷻ معترفاً بنعمة الله عليه وفضلِه وهدايتِه وتوفيقِه؛ لأن المنة منة الله، والفضل فضله ﷻ.

٤ ـ **الفائدة الرابعة:** أنَّ شُكرالنِّعمة يكون بالقلب واللِّسان والجوارح.

وهنا في هذا المقام إذا أوتي العبد نصيباً من الحكمة والعلم النَّافع والعمل الصَّالح؛ فإن شكره لله تبارك وتعالى على هذه النعمة يكونُ بقلبه اعترافاً بنعمة المنعِم، وأن ما أوتيه من علمٍ وحكمةٍ وفقهٍ وبصيرةٍ وهدىً وصلاحٍ هو من الله جل وعلا؛ فيكون الشكر بالقلب اعترافاً بنعمة المنعم، وأن النعمة من الله ﷻ، والأمر الثاني باللِّسان بالثناء على الله وحمده وشُكره، والأمر الثالث بالجوارح بأن يستعملها المنعَم عليه في طاعة الله جلَّ وعلا، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فيَعملُ العبدُ الصَّالحات ويحرصُ على الطَّاعات وعلى صَرف هذه النِّعمة في سبيلِها وطريقِها الَّذي أمَرَه الله تبارك وتعالى به.

٥ ـ **الفائدة الخامسة:** من الفوائد المستفادة من هذا السياق المبارك: أنَّ الله جلَّ وعلا لا ينفعُه شُكر الشَّاكرين ولا يضرُّه كُفر الكافرين.

كما قال الله جل وعلا: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فالله جلَّ وعلا لا ينفعه شُكر مَن شَكَر، ولا يضُرُّه كُفر مَنْ كَفَر،

ولا تَنفَعُه طاعةُ مَن أطاع، ولا تضرُّه معصيةُ مَن عصى. وتأمَّل هذا، فيقول الله ﷻ في الحديث القدسي في حديث أبي ذرٍّ في صحيح مسلم: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ما زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً؛ يا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»[1]؛ فهو ﷻ لا تنفعُه طاعة مَن أطاع، ولا تضرُّه معصيةُ من عصَى؛ بل ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، فهو غنيٌّ حميدٌ، ومِن هذا قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٦].

٦ ـ الفائدة السادسة: أنَّ شُكر العبدِ لنعمة الله عائدٌ أثره على العبد.

فالعبدُ إذا كان شَاكراً هو المنتفع من الشكر ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ فالعبدُ إذا شَكر شكرُه عائد عليه في الدُّنيا والآخرة؛ في الدُّنيا ثباتاً للنِّعمة ودواماً لها وأيضاً جَلباً للنِّعم الأُخرى ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالعبد إذا شكر عاد شكرُه عليه وانتفَع هو من الشكر، ومِن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولهذا فالعبد إذا كان شاكراً شكره لنعم الله يعود عليه، وإن كان ـ والعياذ بالله ـ كافراً عاد كُفرُه وبالاً عليه وحسرةً وندامةً في الدُّنيا والآخرة، وهذا مقامٌ ينبَغي على العبد أن يعيَه. عندما تشكر الله أنت المحتاجُ للشكر، أمَّا الله جلَّ وعلا غنيٌّ عن شكرك، أنت الذي تحتاجُ إلى شكر الله ﷻ، لأنك إن شكرتَه على نعمه ومننه وعطاياه كان هذا الشكر حافظاً وسبباً لحفظ النعمة الموجودة عندك، وكان أيضاً جالباً لك نعماً أخرى وعطايا عديدة في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧.

٧ ـ الفائدة السابعة: مما يستفاد من هذا السياق المبارك: الإيمانُ بكمال غِنى الله المطلَق من كلِّ وجه، وافتِقار العباد إليه من كلِّ وجه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾.

نؤمنُ بأنَّ الله غنيٌّ، و«الغنيُّ» اسمٌ من أسماء الله الحُسنى وهو متضمِّنٌ لوصفِه ﷻ بالغِنى، وهو جلَّ وعلا غنيٌّ عن عبادِه من كلِّ وجهٍ، وعبادُه فقراء إليه من كلِّ وجهٍ؛ المخلوقات كلها فقيرة إلى الله، والله جل وعلا غنيٌّ عن المخلوقات كلها، نحن نؤمن بأنَّ ربَّنا ﷻ الغنيّ، نؤمن بأنه مستوٍ على عرشه بائنٌ من خلقِه، كما أخبر هو بذلك في كتابه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ونؤمنُ في الوقتِ نفسِه أنَّه ﷻ غنيٌّ عنِ العرشِ وعمَّا دون العرش، غنيٌّ عن المخلوقات كلها، وأما المخلوقات فإنها كلّها فقيرةٌ إلى الله، العرش وما دونَه الكل فقير إلى الله جل وعلا، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ [فاطر: ٤١]، فهو الممسك للعَرش، الممسك للسَّموات، الممسك للأرض، المخلوقات كلُّها قائمةٌ بإقامة الله تبارك وتعالى، لا غِنى لها عن الله طَرفة عَين، وأما الله جل وعلا فهو غني عن المخلوقات كلها، والمخلوقات كلها فقيرةٌ إليه ﷻ.

٨ ـ الفائدة الثامنة: مما يدل عليه هذا السياق المبارك: إثبات كمال حَمده سبحانه، وأنَّ له المحامِد كلَّها على كريمِ نَعمائه وعظيمِ أسمائِه وصفاتِه.

قال ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، و«الحميدُ» اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، وهو دالٌّ على ثبوت الحمد لله ﷻ، له الحمد المطلق الكامِل على كلِّ شيء، فهو سُبحانه يُحمَد على أسمائه وصفاتِه، ويُحمَد على نِعمِه وآلائه وأفضالِه وعطائِه؛ فهو «الحميدُ» جلَّ وعلا الَّذي له الحَمد كلُّه ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠]، له الحمد أوَّلاً وآخراً، وله الشُّكر تبارك وتعالى ظاهراً وباطناً، الحمدُ كلّه لله والنِّعمة

كلُّها منَ الله، ما بالعباد مِن نعمَة فهيَ منَ الله، الله مُوليها، ولهذا ينبَغي أن يكونَ الحمد كلُّه مخصوصاً بالمنعِم؛ ولهذا يقول الملبُّون في تلبيَتِهم: «إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك والملك، لا شريكَ لك»؛ فنؤمن بأن الله حميد، وأنه تبارك وتعالى له الحمد أوَّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً؛ وهذا مما يستفاد من هذا السياق المبارك.

٩ ـ الفائدة التاسعة: مكانةُ الحكمة وعظيمُ نفعِها لمن حباه الله تبارك وتعالى بها ومَنَّ عليه بتحصيلِها.

وهذا واضحٌ في هذا السِّياق المبارك مِن ثناء الله على لُقمان، ومدحه بأنَّ الله ﷻ آتاه الله الحكمةَ، وهذا يجعلُ العبدَ حريصاً على معرفة الحكمة ما هي، وعند مطالعة كتب التفاسير لهذه الآية الكريمة يجد الأقاويل النافعة والتفسيرات السديدة التي قالها أهل العلم في بيان الحكمة وحقيقتها.

وأهل العلم قالوا في ذلك أقوالاً عدة، ممَّا قيل في الحكمة: أنَّها «العِلم النَّافع المقرونُ بالعمل الصَّالح»، وقيل: «هي وضعُ الأمور في موضعِها»، وقيل: «هي البَصيرة والفَهم والسَّداد وحُسن الرَّأي».

الشَّاهد أنَّ الحكمةَ لها مكانةٌ عظيمةٌ، وينبغي على كلِّ عبد أن يجدَّ ويجتهدَ في نَيلها وتحصيلِها ببذلِ الوسائلِ المشروعةِ والسُّبل المشروعة الَّتي تُنال بها الحكمة ويوصَل مِن خلالِها إليها.

١٠ ـ الفائدة العاشرة: من فوائد هذا السياق المبارك: أهميَّة أسلوب الوعظ في التَّربية والتَّعليم.

وانظر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾؛ أسلوب الوعظ له أثرٌ بالغٌ في تربية النَّاس وتعليم النَّشء؛ و«الوعظُ» ما هو؟ قال العلماءُ: أن يكون العلم الَّذي يوجَّهُ النَّاس إليه ويُرشَدون إلى فعلِه مقروناً بالتَّرغيب

والتَّرهيب، تذكُر الفائدة مع المرغِّبات، تذكُر الأمرَ بالخير مع المرغِّبات، تذكُر النَّهي عن الشَّرِّ مع المرهِّبات؛ فالوعظُ هو أمرٌ بالخير ونهيٌ عن الشَّرِّ مع التَّرغيب والتَّرهيب؛ والتَّرغيبُ يكون بذكر الفَوائد وذكر الثِّمار وذكر الآثارِ الَّتي ينالُها العبدُ إذا فعَلَ هذا الأمر الَّذي رُغِّب فيه، وأيضاً عند النهي يكون كذلك، يذكر الأخطار والأضرار الَّتي يحصِّلُها منْ وقَعَ في ما نُهي عنه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾؛ يعني لم يأت بالكلام مع ابنه جافاً، ولم يأت به دون أن يصحبه بترغيب وترهيب؛ وإنما جاء بترغيبٍ نافع وذكرٍ لأمور تشجِّعُ المدعوَّ على القيام بما دُعِي إليه على أحسن وجهٍ وأكملِ حالٍ.

١١ ـ **الفائدة الحادية عشرة**: من الفوائد المستفادة من هذا السياق: أهميَّة حُسن التَّودُّد، وعظيم أثره على المتلقِّي والمتعلِّم.

أنت عندما تُريد أن تَعِظ إنساناً وتنصحَه ينبَغي أن تتودَّدَ إليه، ما معنى تتودد إليه؟ يعني أن تذكُر مِن العبارات اللَّطيفة والكلام الحلو الَّذي يجعَل كلامَك يدخُلُ قلبَه، وأيضاً يجعَلُ قلبَه ينفتِحُ لكلامِك، ولقمان وهو يعظ ابنَه جاء بكلام حلو وأسلوبٍ مؤثِّرٍ وكلمات تدخُل إلى القَلب. وانظُر لطفَه في حديثِه مع ابنِه في وعظه، تتكرر عبارة «يا بني!»، تجدها تتكرَّر معك في السِّياق؛ هذه لها وقع في قلب الابن ولها تأثيرٌ وهي تفتح قلبه، انظر الأثر المبارك عندما يكون الوعظ مع حُسن تودد وعندما يكون الوعظ بعيداً عن التَّودُّد، مثل: لو يقول قائل وهو ينصح أو يزجر أو ينهى: يا وَلد!، أو بعضهم عندما يخاطب ابنَه أو من يريد أن ينهاه يذكر أسماءَ بعضِ الحيوانات!! كيف تريد أن ينفتح قلبه لكلامك وأنت تدعوه بهذه الطريقة!! أو يصفه بصفاتٍ تجعل قلبه ينغلق مثل أن يقول له يا أخرس أو مثلاً يا كذا، ويصفه بصفاتٍ تجعل قلبه يُغلق وذهنه يتبلد؛ شتَّان

بين هذا الطَّريق وبين أن يستَخدم الواعظُ أسلوبَ التَّودُّد «يَا بُنَيَّ!» تأتي لطيفة بحنانٍ وأبوَّةٍ وعطفٍ ورأفةٍ فينفَتِح القلبُ.

لاحظ حُسن التَّودُّد، يذكر مُعاذ بن جبل رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْماً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ! إِنِّي لَأُحِبُّكَ»؛ فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رسول الله، وَأَنَا أُحِبُّكَ؛ قَالَ: «أُوصِيكَ يا مُعَاذُ! لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1]، الوصية هي «لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» والذي قبلها تودُّد وتلطُّف وفتحٌ للقلب حتَّى يُقبل على الفائدة وتَنفتح أساريرُ القَلب ويتهيَّأ للتَّحصيل؛ فهذه لا بدّ منها في الدَّعوة إلى الله ﷻ وتعليم النَّاس الخير.

١٢ ـ الوصية الثانية عشرة: مراعاة الأولويَّات في الدَّعوة إلى الله.

وهذا ينبغي أن يتنبَّه له الآباءُ والمربُّون والدُّعاة إلى الله جلَّ وعلا؛ عندما يدعو النَّاسَ إلى الخير أن يراعي الأولويات، وهذا ما فعَله لقمان الحَكيم، إذ أراد أن يُوصي ابنَه بجُملة وصايا نافعة يحتاج أن يوصَى بها، وأن يعرّف بها وأن يُدعى إليها؛ بدأها بماذا؟ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾؛ وهذا منه مراعاةً للأولويَّاتِ، وأن العبد في الدعوة والتربية والتعليم يبدأ بالأهمِّ فالمهمّ فالأقلّ أهمِّيَّةً؛ حتَّى في تربية الأبناء وتنشِئة الأجيال نبدأ أوَّلاً بغَرس الاعتقاد الصَّحيح والإيمان النَّافع، ثمَّ بعدَ ذلك يُعلَّمُون العبادات والآداب والأخلاق، فيراعي العبد الأولويَّات في دعوته إلى الله

---

(١) رواه الترمذي: ٣٣٧٧.

ﷻ، ولهذا لما بعثَ النَّبيُّ ﷺ معاذاً إلى اليَمن، ماذا قال له؟ «إِنَّكَ تقْدمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى»[1].

١٣ ـ الفائدة الثالثة عشرة: أنَّ الشِّرك أعظمُ الذُّنوب وأخطرُها، وهو أعظم ما نَهى الله تبارك وتعالى عنه.

وهذا مستفادٌ من بدْء لقمان الحكيم به، أول ما بدأ بالتحذير من أخطَر الأمور، وهذا هُو سَبيل النَّاصحين؛ عندما ينهى عن أمُور خطيرةٍ هل يُبدَأُ بأخفِّها أو بأشدِّها خطراً؟ بأشدِّها خطراً، ولهذا أول ما بدأ بنهي ابنِه ينهاه عن الشِّرك، وأنتم ستلاحظون في هذا السِّياق المبارك: نهاه عن الكِبر، نهاه عن الغُرور، نهاه عن الخُيلاء، نهاه عن أمور عديدة، لكن أوَّل ما بدأ بنهيه عنه الشِّرك بالله قال: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ فدلَّنا ذلك على أنَّ الشِّرك أخطرُ الأمور، وأشدُّها ضرراً.

١٤ ـ الفائدة الرابعة عشرة: أهميَّة تنشئة الأبناء من الصِّغر على التَّوحيد والإخلاص، والبُعد عن الشِّرك.

وهذا أيضاً مُستفادٌ من هذه الوصيَّة ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾، فيَحتاج الأبناءُ من الصِّغر أن يُحذَّروا منَ الشِّرك، وأن يُدعَوْا إلى التَّوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى، ومن نعمة الله علينا في هذه البلاد أن التوحيد يتكرر مع أبناء المسلمين في المدارس في كل مرحلة يلقنون التوحيد منذ صغرهم في المدارس فينشؤون على معرفة التوحيد الخالص. وأنت تجد الفرق في ديار المسلمين بين من ينشؤون هذه النشأة وبين من ينشؤون ولا يلقنون التوحيد درساً بعد درس ومرة بعد أخرى، تجد الفرق الشاسع بين هذا وذاك، ولهذا إذا لُقِّن الابنُ التَّوحيد مِن بداية الأمر ومن بداية نشأته ينشأ بإذن الله تبارك وتعالى نشأة صالحة.

---

(١) رواه البخاري: ٧٣٧٢.

ومنَ الحِكمة في تسميةِ الأبناء بعَبد الله وعَبد الرَّحمن، فقد جاء في الحديث: «خَيرُ الأَسْمَاءِ عبد الله وَعَبْدُ الرَّحْمَن»[1]، وأيضاً التعبيد لله من الحكمة في ذلك أن ينشَأ الابنُ على التَّوحيد، أن ينشأ وهو يعرف أنَّه عبد لله، ليس عبداً للهوى، ولا عبداً للدُّنيا، ولا عبداً للشَّيطان، ولا عبداً لحظوظ النَّفس، وإنَّما عبد لله تبارك وتعالى، فيَنشَأ على التوحيد.

إذاً من فوائد هذا السياق المبارك أهمية تنشئة الأبناء على التوحيد وغرسه في نفوسهم من الصغر، فتنشئة الناس والنَّاشئة والأبناء على أصول الإيمان وعلى أُسُس العقيدة هذا من الضروريات، لأن هذا هُو الأساس الَّذي يُقام عليه بناء الدِّين، وتؤسَّس عليه الملَّة، وتقوم عليه الدِّيانة، لا تقوم الدِّيانة ولا تقوم الملَّة إلَّا على التَّوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى.

١٥ ـ الفائدة الخامسة عشرة: أنَّ الشِّرك أظلمُ الظُّلم وأعظم الجُرم.

وهذا مأخوذٌ من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، والظُّلم: هو وضْعُ الشَّيء في غَير موضعِه، وأيُّ وضعٍ للشيء في غير موضعه. وأن تُوضَع العبادةُ في غير موضعِها؛ أن تُعطى لمخلوقٍ ناقصٍ ومخلوق عاجزٍ لا يملكُ لنفسِه نفعاً ولا ضرّاً ولاحياةً ولا نشوراً، أيُّ ظلم أعظم من أن يَخلُقَ اللهُ الإنسانَ ثمَّ يتَّجه الإنسان إلى غير الله يعبده!! يرزقُه الله ويتَّجه إلى غير الله يطلب منه!! يشافيه الله ويتَّجه إلى غير الله يطلب منه الشفاء!! أيُّ ظلمٍ أعظم من هذا!! ولهذا أظلم الظلم وأكبر الجرم الشرك بالله، ليس هناك أفظع ظلماً منه، ولهذا قال الله تبارك وتعالى ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أي ظلمٍ أعظم من الكفر! وأي جريمةٍ أعظم من الشرك! ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني:١٠٤٠.

١٦ ـ الفائدة السادسة عشرة: حاجةُ المتعلِّم إلى معرفة ثَمرةِ الأوامِر، وخُطورة النَّواهي حتى تتمكَّن منه:

الفائدة إذا ذُكر له الأمرُ يحتاج أن يُذكر له مع الأمر الفائدةُ والثَّمرةُ، وإذا ذُكر له النَّهي أيضاً يُذكر له الخطر والعاقبة الوخيمة الَّتي ينالها مَن دخل في هذا الطَّريق، وهذا مستفادٌ من القصَّة في عدَّة مواضع منها: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

١٧ ـ الفائدة السابعة عشرة: الوصيَّة بالوالدين برّاً وإحساناً وإكراماً ورعايةً للحُقوق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ إذاً الوصيَّة بالوالدين لها شأنٌ عظيمٌ، والوصيَّة تكون بالأمور العظيمة، والوصيَّة هنا ممن؟ من الموصي؟ ربّ العالمين جلَّ وعلا؛ ولهذا قال غير واحدٍ من المفسِّرين: إنَّ قوله ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ هذا من كلام الله، جاء معترضاً في أثناء وصيَّة لقمان، أوصى الله جلَّ وعلا بالوالدين إحساناً؛ فإذاً مِن الفوائد العظيمة من هذا السِّياق المبارك الوصيَّة بالوالدين ومعرفة حقِّهما والإحسان إليهما والبرِّ بهما والقيام بحقوقِهما.

١٨ ـ الفائدة الثامنة عشرة: أنَّ مِن أعظَم الأمور المعينة على البِرِّ بالوالدين تذكُّر الجميل السَّابق والإحسانِ المتلاحِق.

هذا يُعينُ الإنسانَ على البرِّ، ويجعله يبتعدُ عن العُقوق والقَطيعة، تأمَّل هذا في قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أي تذكَّر أيُّها الابنُ ما حصَل من أُمِّك من أمومةٍ وحملٍ ورضَاعةٍ وتَربيةٍ، كل هذه الأمور تذكَّرها؛ الحملَ وأوجاعَه وأتعابَه والمدَّةَ الطَّويلةَ الَّتي قضيتَها في رحم أُمِّك ثِقلٌ تحملُك في بطنِها تسعةَ أشهرٍ ومعاناةٌ في القيام والقُعود وعند النَّوم، تذكَّر الوهن الذي على وهن الذي أصاب أمك من حملها لك، ضعف على ضعف، وتعب على

تعب، ونصبٌ على نصب، هذا جميل ينبغي أن لا يغيب عن ذهنك، أيضاً الوضع وشدَّته وما تُعانيه الأمُّ عند الولادة حتَّى خرجتَ إلى هذه الحياة، الرَّضاعة وما يكتنِفها من أتعاب وأوجاعٍ وسهرٍ وتعبٍ؛ كُلُّ هذا جميلٌ يُنسى؟! ! إذاً ذكر الجميل والإحسان السابق من أعظم الأمور المعينة على البر، وأنت تستفيد من هذا السياق المبارك إذا أردت أن تذكِّر الإنسان ببر الوالدين ذكره بالجميل السابق، ذكِّره بالمعروف بالإحسان، بالجهود التي كانت من الوالدين تجاه أولادهم.

١٩ ـ الفائدة التاسعة عشرة: مما يعين على البر: التذكير بالمصير إلى الله والعودة إليه:

انظر ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، يعينك على البر أمور عديدة، أهمها أمران:

الأمر الأول أن تتذكر الجميل السابق.

والأمر الثاني أن تتذكر أنك سترجع إلى الله؛ إن كنت باراً ستلقى جزاء برك وإحسانك، وإن كان الإنسان والعياذ بالله عاقاً، فسيلقى عقوبة عقوقه عندما يرجع إلى الله تبارك وتعالى. لم ينته العقوق بانتهاء هذه الحياة، قد يعق الإنسان والديه ويموت والعياذ بالله عاقاً؛ انتهى الأمر إلى هنا؟ أبداً والله، أمامه العقوبة التي أعدها الله تبارك وتعالى لمن كان عاقاً لوالديه في الآخرة.

٢٠ ـ الفائدة العشرون: الدلالة على عظم حقِّ الأمِّ، وأنَّها أَولى النَّاس بالبرِّ وحُسن المصاحبَة:

وفي الحديث أنّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ»؛ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ

أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»[1]؛ ثلاث مرَّاتٍ يذكر الأمَّ!! لماذا؟ لأنَّ الأم هي الأحقُّ والأَوْلى بحُسن المصاحبة، ولأنَّ ما كان من الأم تجاه هذا الابن لم يكن من غيرها، وما حصل منها لم يحصل من غيرها، فهي حصل منها مراتب ومراتب من الإحسان لم تحصل من الأب ولا من العمة ولا من الخالة ولا من كافة الأقرباء، ولهذا بعض العلماء قالوا: إنَّ في هذه الآية دليلاً وشاهداً لقول النَّبيِّ ﷺ: «أمُّك، ثمَّ أمُّك، ثمَّ أمُّك» ما وجه الشاهد؟ أنَّ الله جلَّ وعلا ذكر في هذا السِّياق للأمِّ ثلاث مراتب في إحسانها للابنِ، ما هي؟

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ الأمومة، ثانياً: الحمل، ثالثاً: الرَّضاعة؛ فهذه ثلاث مراتب من الأمِّ لم تحصُل لا منَ الأب ولا مِن كافَّة من أحسن إلى هذا الابن، والجميل يقتضي ردَّ الجميل وملاقاة الإحسان بالإحسان.

لكن من المصائب العظيمة أن تجد بعض النَّاس يلقى من أمِّه هذا الإحسان الدَّائم والجميل المتواصل ثمَّ تكون النِّهاية أنَّ برَّه ولُطفه وحُسنَ صُحبته يُقدِّمه إلى الآخرين الَّذين لم يقدِّمُوا له عُشر مِعشار ما قدَّمته الأمُّ!! والأم لا يعطيها من حسن مصاحبته شيئاً، وإن أعطاها أعطاها الفَضلةَ والقليل؛ أهكذا يكون ردُّ الجميل!! أهكذا يكون رد الإحسان ومجازاة المحسنين!! ولهذا كان من أعظم الإثم وأشدِّ اللُّؤم العقوق بالأمِّ، كيف يعقُّ الإنسانُ أمَّه وهي خيرُ من قدَّم له من الناس المعروف والمروءة والإحسان والإكرام؟!

إذاً من الفوائد العظيمة المستفادة من هذا السياق المبارك حق الأم، وأنها أولى الناس بحسن المصاحبة.

---

(١) رواه البخاري: ٥٦٢٦.

٢١ ـ الفائدة الحادية والعشرون: أنَّ ما تلقاه الأمُّ في الحملِ والوضع، كذلك الأمومة من مشقَّةٍ وتعبٍ أمرٌ لا يلحق الابن جزاءَه مهما بَذل من البرِّ.

٢٢ ـ الفائدة الثانية والعشرون: أنَّ اقترانَ حقِّ الوالدين بحقِّ الله دليلٌ على عظيم مكانة حقِّهما.

٢٣ ـ الفائدة الثالثة والعشرون: أنَّ شكر الله يكون بالقلب حباً وتعظيماً، وباللسان حمداً وثناء، وبالجوارح للصالحات وانكفافاً عن المنهيات.

٢٤ ـ الفائدة الرابعة والعشرون: طريقة التَّعامل مع الأب أو الأمِّ إن كانا مُشركين أو فاسقين:

وهذا تأمله في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ فلا تُطاع الأمُّ ولا يُطاع الأب إن دعا الابن إلى الشرك أو دعاه إلى فعل المعصية؛ لكن في الوقت نفسِه لا بدّ من المصاحبة بالمعروف؛ حتى لو كان أحد الوالدين مشركاً أو كان فاسقاً أو نحو ذلك، لا يطاع في ما يدعو إليه من محرم لكن يصاحَب بالمعروف، قال ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾.

٢٥ ـ الفائدة الخامسة والعشرون: كمال الشَّريعة في دعوتها إلى حفظ المعروف ومراعاة الجميل:

وهذا واضحٌ، فعلى الرغم من أن الأب المشرك أو الأمّ المشركة ـ والعياذ بالله ـ تدعو ابنها إلى الشِّرك، مع هذا الله جل وعلا قال: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، إذا كان الحال هذه والأبوان مشركيْن؛ فكيف إذا كان الأبوان مؤمنيْن لا يأمران إلَّا بالخير ولا يدعوان إلَّا إلى البرِّ والصلة والإحسان!! الأمر أعظم وأشد.

٢٦ ـ الفائدة السادسة والعشرون: أنَّ أهل الضَّلال قد تكون منهم مجاهدةٌ وبذلُ وسعٍ في نشرِ باطلهم والدَّعوة إلى ضلالهم.

وهذا واضحٌ في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ فأهل الباطل قد تكون منهم مجاهدة وهو بذلُ وسعٍ واستفراغ للطاقة في نشر الباطل، والعياذ بالله.

٢٧ ـ الفائدة السابعة والعشرون: التَّفريق بين عدم الطَّاعة والعُقوق.

ينبغي أن يُنتبه لهذا، فيفرق بين عدم الطاعة وبين العقوق، بعض النَّاس يخلِط في جعل عدم الطاعة مع العقوق؛ فهناك فرق بينهما، ولهذا لاحظ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ لم يقل فعقهما وإنما قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾. إذاً هناك فرق شاسع بين عدم الطاعة وبين العقوق.

٢٨ ـ الفائدة الثامنة والعشرون: فضل الصَّحابة وخيار الأمَّة.

من أين أخذنا هذه الفائدة؟ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، وإذا نظرتَ في حال الصَّحابة وخيار الأمَّة تجد أنَّ حالهم هي حال المنيبين إلى الله جلَّ وعلا، ولهذا تجد بعض المفسِّرين يقولون: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي أبا بكر، أو يقول: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي الصَّحابة؛ وهذا كلُّه تفسيرٌ للشيء ببعض أفرادِه أو بأفضلِ أفرادِه أو بأفضل من يدخل فيه؛ فإذاً هذا يدلُّنا على فضل الصَّحابة وفضل خيار الأمَّة، وأنَّه ينبَغي علينا أن نعرفَ سبيلَ هؤلاء الأخيار الأماثل وأن نتَّبعه.

٢٩ ـ الفائدة التاسعة والعشرون: أهميَّة اختيار الجَليس:

ليس للمؤمن أن يجلسَ مع مَن شاء، وكم حصل من ضَرَر للإنسان بسَبَب المجالِس، وأنت مُطالبٌ بأن لا تجلسَ مع كلِّ أحدٍ، وإنَّما تُجالس أهلَ الخَير، وهذا أيضاً مُستفادٌ من قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

٣٠ ـ الفائدة الثَّلاثون: خطورة اتباع غير سبيل المؤمنين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

٣١ ـ الفائدة الحادية والثَّلاثون: فضلُ الإنابة إلى الله ومكانة المنيبين:

وهذا ظاهرٌ من قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، جَعل الله سبيلَ المنيبين سبيلاً تُتَّبع وطريقةً تُسلَك.

٣٢ ـ الفائدة الثانية والثَّلاثون: أنَّ أعمال العباد كلَّها مُحصاةٌ عليهم يجدونها حاضرةً يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٣٣ ـ الفائدة الثالثة والثَّلاثون: أنَّ الشِّرك لا بُرهان عليه ولا حجَّةَ لأهلِه عليه:

من أين أخذناها؟ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ، وهذا مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فالشِّرك أيّاً كان نوعه وأيّاً كانت صفتُه لا برهان عليه، هذه صفة لازمة للشِّرك في كلِّ أحواله وفي جميع صُوَره.

٣٤ ـ الفائدة الرابعة والثَّلاثون: أهميَّة التَّأكيد في الدعوةِ إلى الله بالرُّجوع إليه ومُجازاته العبادَ على ما قدَّموه في هذه الحياة.

ينبغي على الدُّعاة أن يراعوا هذا الأمر دائماً وأبداً، وأن يذكِّروا بالرجوع إلى الله، وهذا أمر مهم وضروري في الدعوة؛ ولهذا تلاحظ أنه تكرر عند لقمان؛ جاء في قوله: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ، وجاء بعده: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ، فهذا الأمر يحتاج النّاس أن يُذكَّر به مرَّاتٍ وكرَّاتٍ حتَّى يَرسَخَ في أذهانِهم قُدومُهم على الله ومُجازاةُ الله تبارك وتعالى لهم على الأعمال الَّتي قدَّموها في هذه الحياة.

٣٥ ـ الفائدة الخامسة والثَّلاثون: إحاطةُ علم الله جلَّ وعلا وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾.

٣٦ ـ الفائدة السادسة والثَّلاثون: أثَرُ الإيمان بأسماء الله وصفاتِه في صلاح العبد وزكاءِ أعمالِه:

ولهذا قال العلماء: كلما كان العبدَ بالله أعرف، كان منه أخوَف، ولعبادته أطلَب، وعن معصيتِه أبعَد.

٣٧ ـ الفائدة السابعة والثلاثون: أهميَّة تربية الأبناء على مراقبة الله:

إذا نبّهت ابنكَ وقُلتَ له «لا تفعَل كذا» لا تقل له: إن فعلتَ سأفعل بك؛ لا تجعله يراقبُكَ أنتَ، لا تقل له إن لم تفعل كذا سأفعل بك كيت وكيت، إن لم تصلِّ سأعاقبك بكذا وكذا، وإنّما اجعله يراقب الله، «يا بنيَّ صلِّ، ابتعِد عن الحرام، الله يراك، يطَّلع عليك لا تخفى عليه منك خافيةٌ، لو تَفعل يا بنيَّ خطأ صغيراً والخطأ هذا يكون في صخرةٍ صمَّاء في داخلها أو يكون في السَّماء أو يكون في أعماق الأرض الله يأتي به وستراه يوم القيامة، يا بنيَّ انتبه!» فينشأ الابن يراقب من؟ يراقب الله جلَّ وعلا، فهذا من الأمور المهمة في تربية الأبناء.

٣٨ ـ الفائدة الثامنة والثلاثون: أنَّ الوزن يوم القيامة بمثاقيل الذَّرِّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، وهذا أخذناه من السياق من قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[لقمان: ١٦].

٣٩ ـ الفائدة التاسعة والثلاثون: أنَّ المظالم لا تضيع وإن قلَّت:

وكلُّ مظلَمَة ستأتي يوم القيامة حتَّى وإن كان أمراً قليلاً، ولهذا قال بعض المفسِّرين في معنى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، يعني المظلمة لو كانت صغيرة جدّاً يأتي الله جلَّ وعلا بها.

٤٠ ـ الفائدة الأربعون: الإيمان باسمَي الله «اللَّطيف» و«الخبير»، وأنه لا يخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي، وأنه خبير بكل شيء لا يغيب عنه شيء سبحانه.

٤١ ـ الفائدة الحادية والأربعون: مكانة الصَّلاة وأهميَّة إقامتها والمحافظة عليها.

٤٢ ـ الفائدة الثانية والأربعون: تدريبُ الأبناء على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر:

وفي ذلكَ نفعٌ لهم وللآخرين؛ وهنا نلاحظ ملاحظة:

عندما تعوِّد ابنك على الخير أيضاً عوّده على الدعوة إلى الخير، لماذا؟ لأنَّه إذا نشأ منَ الصِّغر داعيةً إلى الخير سيستَفيدُ هو ويستفيدُ الآخرون، أمَّا هو فالفائدة الَّتي تحصلُ له أنَّ دعوته للآخرين تكون تحصيناً له من أن يدعُوَه الآخرون إلى المنكرات؛ وقد قيل قديماً: «إذا لم تَدعُ تُدعَى»، فإذا كانَ الابنُ داعيةً إلى الخير فهذه بحدِّ ذاتِها تكون له وقايةً من دُعاة الشَّر؛ لأنَّهم عرفُوه بأنَّه داعية إلى الخير فيجدون أنَّه لا سبيل لهم إلى مثله، وربما يهتدي على يديه أناسٌ تكون هدايتُهم في ميزانِ حسناتِه «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رجلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم»[1].

٤٣ ـ الفائدة الثالثة والأربعون: الوصيَّة بالصَّبر لا سيما الدُّعاة إلى الله ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

❋❋❋

(١) صحيح البخاري (٤٢١٠).

الباب الثاني
نظرات بيانية في وصية لقمان لابنه

تبدأ الوصية من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

تلك هي الوصية وقد بدأت:

١ ـ بذكر إتيان لقمان الحكمة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

الحكمة: والحكمة هي وضع الشيء في محله قولاً وعملاً، أو هي توفيق العلم بالعمل، فلا بدّ من الأمرين معاً: القول والعمل، فمن أحسن القول ولم يحسن العمل فليس بحكيم، ومن أحسن العمل ولم يحسن القول فليس بحكيم. فالحكمة لها جانبان: جانب يتعلق بالقول، وجانب يتعلق بالعمل. والحكمة خير كثير كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الله تعالى مؤتي الحكمة، ولذلك نلاحظ أنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾. قال (آتينا) بإسناد الفعل إلى نفسه، ولم يقل: لقد أوتي لقمان الحكمة، بل نسب الإتيان لنفسه. والله تعالى في القرآن الكريم يسند الأمور إلى ذاته العلية في الأمور المهمة وأمور الخير، ولا ينسب الشر والسوء إلى نفسه ألبتة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فعندما ذكر الشر بناه للمجهول، وعندما ذكر الخير ذكر الله تعالى نفسه. وهذا مطرد في القرآن الكريم، ونجده في نحو: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيقول الأولى في مقام الخير، وإن قال الثانية فهو في مقام السوء والذم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] فعندما ذكر النعمة قال: (أنعمنا) بإسناد النعمة إلى نفسه تعالى، وعندما ذكر الشر قال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ ولم يقل: إذا مسسناه بالشر. ولم ترد في القرآن مطلقاً: زينا لهم سوء أعمالهم، وقد نجد: زينا لهم أعمالهم، دون السوء، لأن الله تعالى لا ينسب السوء إلى نفسه، ولما كانت الحكمة خيراً محضاً نسبها إلى نفسه.

إن قيل: فقد قال في موضع: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فالرد أنه ﷻ قد قال قبلها: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فنسب إتيان الحكمة إلى نفسه، ثم أعادها عامة بالفعل المبني للمجهول.

٢ ـ مقام الشكر: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لها دلالتان:

الأولى: أن الحكمة لما كانت تفضلاً ونعمة فعليه أن يشكر النعم، كما تقول: لقد آتاك الله نعمة فاشكره عليها. والله آتاه الحكمة فعليه أن يشكره لأن النعم ينبغي أن تقابل بالشكر لموليها (آتاك نعمة الحكمة فاشكره عليها).

الثانية: أن من الحكمة أن تشكر ربك، فإذا شكرت ربك زادك من نعمه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ولو قال غير هذا، مثلاً (فاشكر لله) لكان فيه ضعف، ولم يؤد هذين المعنيين. وضعف المعنى يكون لأن الله تعالى آتاه النعمة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ فإن قال بعدها: (فاشكر لله) فهذا أمر موجه لشخص آخر وهو الرسول ﷺ، فيصير المعنى: آتى الله لقمان الحكمة فاشكر أنت!! كيف يكون؟ المفروض أن من أوتي الحكمة يشكر، ولذلك قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فجاء بأن التفسيرية، ولو قال أي تعبير آخر لم يؤد هذا المعنى.

٣ ـ الشكر والكفر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

(يشكر) قال الشكر بلفظ المضارع، والكفران قاله بالفعل الماضي (ومن كفر)، من الناحية النحوية الشرط يجعل الماضي استقبالاً، مثال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ، فكلاهما استقبال.

ويبقى السؤال: لماذا اختلف زمن الفعلين، فكان الشكر بالمضارع والكفر بالماضي على أن الدلالة هي للاستقبال؟

من تتبعنا للتعبير القرآني وجدنا أنه إذا جاء بعد أداة الشرط بالفعل الماضي فذلك الفعل يُفعل مرة واحدة أو قليلاً، وما جاء بالفعل المضارع يتكرر فعله.

مثال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢]. وبعدها قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فعندما ذكر القتل الخطأ جاء بالفعل الماضي لأن هذا خطأ غير متعمد، إذاً هو لا يتكرر، وعندما جاء بالقتل العمد جاء بالفعل المضارع

(ومن يقتل) لأنه ما دام يتعمد قتل المؤمن فكل ما سنحت له الفرصة فعل، فجاء بالفعل المضارع الذي يدل على التكرار.

مثال آخر: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فذكر الآخرة وجاء بالفعل الماضي لأن الآخرة واحدة وهي تراد، لكن عندما تحدث عن الدنيا قال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] لأن إرادة الثواب تتكرر دائماً.

كل عمل تفعله تريد الثواب، فهو إذاً يتكرر، والشيء المتكرر جاء به بالمضارع يشكر، فالشكر يتكرر لأن النعم لا تنتهي ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالشكر يتكرر، كلما أحدث لك نعمة وجب عليك أن تحدث له شكراً، أما الكفر فهو أمر واحد حتى إن لم يتكرر، فإن كفر الإنسان بأمر ما فقد كفر، إن كفر بما يعتقد من الدين بالضرورة فقد كفر. لا ينبغي أن يكرر هذا الأمر لأنه إن أنكر شيئاً من الدين بالضرورة واعتقد ذلك؛ فقد كفر وانتهى ولا يحتاج إلى تكرار. أما الشكر فيحتاج إلى تكرار لأن النعم لا تنتهي. وفيه إشارة إلى أن الشكر ينبغي أن يتكرر وأن الكفر ينبغي أن يقطع، فخالف بينهما في التعبير فجاء بأحدهما في الزمن الحاضر الدال على التجدد والاستمرار وجاء بالآخر في الزمن الماضي الذي ينبغي أن ينتهي.

٤ ـ الله غني حميد: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾:

جاء بـ (إنما) التي تفيد الحصر، أي الشكر لا يفيد إلا صاحبه ولا ينفع الله ولا يفيد إلا العبد: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ما زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً؛ يا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ

أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»[1]؛ لذلك قال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، جمع بين هاتين الصفتين الجليلتين: الحميد أي المحمود على وجه الدوام والثبوت، وهو تعالى غني محمود في غناه. وهناك حالات للحمد والغنى:

ـ فقد يكون الشخص غنياً غير محمود.

ـ أو محموداً غير غني.

ـ أو محموداً وهو ليس غنياً بعد، فإن اغتنى انقلب لأن المال قد يغير الأشخاص، وقد يغير النفوس كما أن الفقر قد يغير النفوس.

ـ وقد يكون الشخص غنياً وغير محمود لأنه لا ينفع في غناه، ولا يؤدي حق الله عليه ولا يفيد الآخرين، بل قد يجر المصالح لنفسه على غناه.

ـ وقد يكون محموداً غير غني، ولو كان غنياً لما كان محموداً، فإن اجتمعا لأمرين فكان غنياً محموداً فذلك منتهى الكمال.

وفي آية أخرى في السورة نفسها قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، نقول: فلان غني، أي: هو من جملة الأغنياء، وقد يكون ملكاً معه أغنياء. فإذا قلت هو الغني فكأن الآخرين ليسوا شيئاً بالنسبة إلى غناه وهو صاحب الغنى وحده.

فلماذا قال هاهنا (فإن الله غني حميد) وهناك في السورة نفسها (هو الغني الحميد)؟

نلاحظ أن في هذه الآية لم يذكر له ملكاً ولا شيئاً، وهذا حتى في حياتنا اليومية نستعمله، نقول أنا غني عنك كما قال الخليل:

---

(١) سبق تخريجه في ص ١٦٢.

أبلـغ سـليمان أني عنـه في سَـعَةٍ وفي غنى غير أني لست ذا مـال

فقد تقول: أنا غني عنك، ولكن ليس بالضرورة أن تكون ذا ثروة ومال، فهنا لم يذكر الله سبحانه لنفسه ملكاً، فالمعنى أن الله غني عن الشكر وعن الكفر، لا ينفعه شكر ولا يضره كفر.

أما في الآية الأخرى فقد ذكر له ملكاً ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

فعندما ذكر له ملك السموات والأرض المتسع، فمن أغنى منه؟ فقال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

٥ ـ أهمية الحكمة في الوعظ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾:

من هنا بدأت الوصية، فلماذا صدر بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا...﴾ وكان يمكن مثلاً أن يحذفها؟

الحكمة لها جانبان: جانب قولي وجانب عملي، وحكمة لقمان ليست فيما ذكره من أحاديث وأقوال وما قاله لابنه من الوصية، وإنما أيضاً في العمل الذي فعله وهو تعهده لابنه وعدم تركه بلا وعظ أو إرشاد، وفي هذا توجيه للآباء أن يتعهدوا أبناءهم ولا يتركوهم لمعلمي سوءٍ ولا للطرقات.

وصدّر بالحكمة وهي ذات جانبين قولي وعملي، فعندما وصى ابنه فهل من الحكمة أن يوصي ابنه بشيء ويخالفه؟ هذا ليس من الحكمة، ولو فعله فلن تنفع وصيته، لو خالف الوعظ عمل الواعظ والموجه لم تنفع الوصية، بل لا بد أن يطبق ذلك على نفسه، فعندما قال (آتينا لقمان الحكمة) علمنا من هذا أن كل

ما قاله لقمان لابنه فقد طبقه على نفسه أولاً حتى يكون كلامه مؤثراً، لذلك كان لهذا التصدير دورٌ مهم في التربية والتوجيه.

ففي هذا القول ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ عدة دروس مهمة:

الأول: في ما قاله من الحكمة، و**الثاني**: في تعهده لابنه وتربيته وتعليمه وعدم تركه لأهل السوء والجهالة يفعلون في نفسه وعقله ما يشاء، و**الثالث**: قبل أن يعظ ابنه طبق ذلك على نفسه فرأى الابن في أبيه كلما يقول هو ينصحه به من خير، لذلك كان لهذا التصدير ملمح تربوي مهم وهو توجيه الوعاظ والمرشدين والناصحين والآباء أن يبدؤوا بأنفسهم؛ فإن ذلك من الحكمة وإلا سقطت جميع أقوالهم.

٦ ـ التعهد بالنصح مع حسن اختيار الوقت: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾:

نحن نعرف أنه يعظه، ويتضح أنه وعظ من خلال الآيات والأوامر وسياق الكلام، فلماذا قال ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ؟ فيها دلالتان:

أ ـ من حيث اللغة: الحال والاستئناس للدلالة على الاستمرار. وهو يعظه اختار الوقت المناسب للوعظ، ليس كلاماً طارئاً يفعله هكذا، أو في وقت لا يكون الابن فيه مهيّأ للتلقي، ولا يلقيه بغير اهتمام فلا تبلغ الوصية عند ذلك مبلغاً، لكنه جاء به في وقت مناسب للوعظ فيلقي ونفسه مهيأة لقبول الكلام فهو إذاً اختار الوقت المناسب للوعظ والتوجيه.

ب ـ والأمر الثاني ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾، فهذا من شأن لقمان أن يعظ ابنه، هو لا يتركه، وليست هذه هي المرة الأولى، هو من شأنه ألا يترك ابنه بل يتعاهده دائماً، وهكذا ينبغي أن يكون المربي. فكل كلمة فيها توجيه تربوي للمربين والواعظين والناصحين والآباء.

٧ ـ الرفق في الموعظة:

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: كلمة تصغير للتحبيب، أي ابدأ بالكلام اللين اللطيف الهين للابن وليس بالتعنيف والزجر، بل بحنان ورِقّة لأن الكلمة الطيبة الهينة اللينة تفتح القلوب المقفلة وتلين النفوس العصية، عكس الكلمة الشديدة المنفرة التي تقفل النفوس، لذلك قال ربنا لموسى عليه السلام عن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طـه: ٤٤].

وأنت أيها الأب إن أجلست ولدك إلى جانبك ووضعت يدك على رأسه وكتفه، وقلت له: يا بني! فتأكد أن هذه الكلمة بل هذه الحركة من المسح تؤثر أضعاف الكلام الذي تقوله، وتؤثر في نفسه أكثر بكثير من كل كلام تقوله وتزيل أي شيء بينك وبينه من حجاب وتفتح قلبه للقبول. وعندها فهو إن أراد أن يخالفك فهو يخجل أن يخالفك. بهذه الكلمة اللطيفة الشفيقة تزيل ما بينك وبينه من حجاب، ويكون لك كتاباً مفتوحاً أمامك، وعندها سيقبل كلامك، والكلمة الطيبة صدقة. لذلك بدأ بهذه الكلمة مع أنه من الممكن أن يبدأ الأب بالأمر مباشرة، ولكن لها أثرها الذي لا ينكر ولا يترك.

فأراد ربنا أن يوجهنا إلى الطريقة اللطيفة الصحيحة المنتجة في تربية الأبناء وتوجيههم، وإزالة الحجاب بيننا وبينهم من دون تعنيف أو قسوة أو شدة، وبذلك تريح نفسه وتزيل كل حجاب بينك وبينه. ونحن في حياتنا اليومية نعلم أن كلمة واحدة قد تؤدي إلى أضعاف ما فيها من السوء، وكلمة أخرى تهون الأمور العظيمة وتجعلها يسيرة.

ولقد تعلمتُ درساً في هذه الحياة، قلته لابني مرة وقد اشتد في أمر من الأمور في موقف ما، وأنا أتجاوز الخمسين بكثير، وكان الموقف شديداً جداً، وقد فعل

فعلته في جهة ما وخُبّرت بذلك فجئت به ووضعته إلى جانبي وقلت له: يا فلان! تعلمتُ من الحياة درساً أحب أن تتعلمه وهو أنه بالكلمة الشديدة الناهرة ربما لا أستطيع أن أحصل على حقي، ولكن تعلمت أنه بالكلمة الهينة اللينة آخذ أكثر من حقي.

٨ ـ أسّ الوصية ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾

لم يبدأ بالعبادة ولم يقل له اعبد الله، وإنما بدأ بالنهي عن الشرك، وذلك لما يلي:

أولاً: التوحيد أس الأمور، ولا تقبل عبادة مع الشرك، فالتوحيد أهم شيء.

ثانياً: العبادة تلي التوحيد وعدم الشرك، فهي أخص منه. التوحيد تعلمه الصغير والكبير، فالمعتقدات تُتعلم في الصغر، وما تعلم في الصغر فمن الصعب فيما بعد أن تجتثه من نفسه، ولن يترك ما تعلمه حتى لو كان أستاذاً جامعياً في أرقى الجامعات، هذا ما شهدناه وعاينَّاه بأنفسنا، فهذا الأمر يكون للصغير والكبير، تعلمه لابنك وهو صغير، ويحتاجه وهو كبير، أما العبادة فتكون بعد التكليف.

ثالثاً: أمر آخر وهو أيسر، فالأمر بعدم الشرك (أي بالتوحيد) هو أيسر من التكليف بالعبادة، العبادة ثقيلة، ولذلك نرى كثيراً من الناس موحدين ولكنهم يقصرون بالعبادة، فبدأ بما هو أعم وأيسر؛ أعم لأنه يشمل الصغير والكبير، وأيسر في الأداء والتكليف.

٩ ـ ثم قال ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾:

لماذا اختار الظلم؟ لماذا لم يختر: إثم عظيم، ولماذا لم يقل كبير؟

لو تقدم شخصان إلى وظيفة، أحدهما يعلم أمر الوظيفة ودقائقها وأمورها وحدودها، ويعبر عن ذلك بأسلوب واضح سهل بين، والثاني تقدم معه ولكنه

لا يعلم شيئاً ولا يحسنها وهو فيه عبء، وعنده قصور فهم وإدراك، فإن سوَّينا بينهما أفليس ذلك ظلماً؟

ولو تقدم اثنان للدراسات العليا، أحدهما يعرف الأمور بدقة ويجيب على كل شيء، وله أسلوب فصيح بليغ لطيف، وآخر لا يعلم شيئاً ولا يفقه شيئاً ولم يجب عن سؤال ولا يحسن أن يبين عن نفسه، فإن سوَّيت بينهما أفليس ذلك ظلماً؟

والفرق بين الله وبين المعبود الآخر أكبر بكثير، ليست هناك نسبة بين الخالق والمخلوق، بين مولي النعمة ومن ليس له نعمة، فإن كان ذاك الظلم لا نرضى به في حياتنا اليومية، فكيف نرضى فيما هو أعظم منه؟ فهذا إذاً ظلم، وهو ظلم عظيم.

والإنسان المشرك يحط من قدر نفسه لأن الآلهة التي يعبدها تكون أحط منه، وقصارى الأمر أن تكون مثله، فهو يعبد من هو أدنى منه، أو بمنزلته، فهذا انحطاط وظلم للنفس بالحط من قدرها، إنه ظلم لأنه يورد نفسه موارد التهلكة ويخلدها في النار، وهذا ظلم عظيم.

وأمر آخر أن الإنسان بطبيعته يكره الظلم، قد يرتضيه لنفسه لكن لا يرضى أن يقع عليه ظلم، فاختار الأمر الذي تكرهه نفوس البشر (الظلم) وإن كان المرء بنفسه ظالماً.

وفي هذا القول تعليل، فهو لم يقل له: (لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) وسكت، وإنما علل له، وهذا توجيه للآباء أن يعللوا لا أن يقتصروا على الأوامر والنواهي بلا تعليل، لا بد من ذكر السبب حتى يفهم لماذا، لا بدّ أن يعرف حتى يقتنع، فهو بهذه

النهاية (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أفادنا أموراً كثيرة في التوجيه والنصح والتعليم والتربية.

١٠ ـ عظم حق الوالدين ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾:

(ووصينا) من قائلها؟ هذه ليست وصية لقمان، هذا كلام الله، لقمان لم ينهِ وصيته، هذه مداخلة، وستتواصل الوصية فيما بعد، قبل أن يتم الوصية قال الله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، ولم يدع لقمان يتم الوصية، بل تدخل سبحانه بهذا الكلام، وذلك لأسباب:

أولاً: أمر الوالدين أمر عظيم، والوصية بهما كذلك، فالله تعالى هو الذي تولى هذا الأمر، ولم يترك لقمان يوصي ابنه به، فلما كان شأن الوالدين عظيماً تولى ربنا تعالى أمرهما، لعظم منزلتهما عند الله تعالى.

ثانياً: لو ترك لقمان يوصي ابنه: يا بني أطع والديك، لكان الأمر مختلفاً؛ لأننا عادة في النصح والتوجيه ننظر للشخص الناصح هل له في هذا النصح نفع؟ فإن نصحك شخص ما فأنت تنظر هل في هذا النصح نفع يعود على الناصح؟ فإن كان فيه نفع يعود على الناصح فأنت تتريث وتفكر وتقول: قد يكون نصحني لأمر في نفسه قد ينفعه، لو لم ينفعه لم ينصحني هذه النصيحة. لو ترك الله تعالى لقمان يوصي ابنه لكان ممكناً أن يظن الولد أن الوالدين نصحاه بهذا لينتفع به، ولكن انتفت المنفعة هنا، فالموصي هو الله وليست له فيه مصلحة.

وقال: (ووصينا)، ولم يقل: وأوصينا.

والله تعالى يقول (وصّى) بالتشديد إذا كان أمر الوصية شديداً ومهماً، لذلك يستعمل (وصى) في أمور الدين، وفي الأمور المعنوية: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أما (أوصى) فيستعملها الله تعالى في الأمور المادية: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء: ١٣١].

لم ترد في القرآن (أوصى) في أمور الدين إلا في مكان واحد اقترنت بالأمور المادية، وهو قول السيد المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١].

في غير هذه الآية لم ترد (أوصى) في أمور الدين، أما في هذا الموضع الوحيد فقد اقترنت الصلاة بالأمور المادية، وقد قالها السيد المسيح في المهد وهو غير مكلف أصلاً.

قال (وصّى) وأسند الوصية إلى ضمير التعظيم (ووصينا) والله تعالى ينسب الأمور إلى نفسه في الأمور المهمة وأمور الخير.

ولم يقل (بأبويه) بل اختار (بوالديه):

الوالدان مثنى الوالد والوالدة، وهو تغليب للمذكر كعادة العرب في التغليب، إذ يغلبون المذكر كالشمس والقمر يقولون عنهما (القمران).

والأبوان هما الأب والأم، ولكنه أيضاً بتغليب المذكر، ولو غلب الوالدة لقال الوالدتين، فسواء قال بأبويه أو بوالديه فهو تغليب للمذكر، ولكن لماذا اختار الوالدين ولم يقل الأبوين؟

لو نظرنا إلى الآية لوجدناه يذكر الأم لا الأب: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾، فذكر أولاً الحمل والفطام من الرضاع (وفصاله) ولم يذكر الأب

أصلاً. ذكر ما يتعلق بالأم (الحمل والفصال)، وبينهما الولادة والوالدان من الولادة، والولادة تقوم بها الأم. إذاً:

أولاً: (المناسبة) فعندما ذكر الحمل والفصال ناسب ذكر الولادة.

ثانياً: ذكره بالولادة وهو عاجز ضعيف، ولولا والداه له لكف ذكره به.

ثالثاً: إشارة إلى أنه ينبغي الإحسان إلى الأم أكثر من الأب، ومصاحبة الأم أكثر من الأب؛ لأن الولادة من شأن الأم وليست من شأن الأب.

لذلك فعندما قال (بوالديه) ذكر ما يتعلق في الأصل بالأم، ولذلك فهذه الناحية تقول: ينبغي الإحسان إلى الوالدة قبل الأب، وأكثر من الأب، ولذلك لا تجد في القرآن الكريم البر أو الدعاء أو التوصية إلا بذكر الوالدين لا الأبوين.

أمثلة:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]..

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وكذلك البر والدعاء والإحسان:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

لم يرد استعمال (الأبوين) إلا مرة في المواريث، حيث نصيب الأب أكثر من نصيب الأم، أو التساوي في الأنصبة. لكن في البر والتوصية والدعاء لم يأت إلا بلفظ (الوالدين) إلماحاً إلى أن نصيب الأم ينبغي أن يكون أكثر من نصيب الأب.

كما أن لفظ (الأبوان) قد يأتي للجدين: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦].

ويأتي لآدم وحواء: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] فاختيار الوالدين له دلالات مهمة.

ثم هو هنا لم يأت بالأب أصلاً، بل قال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ ولم يرد ذكر للأب أبداً، لذلك كان اختيار الوالدين أنسب من كل ناحية.

قد تقول: إن هذا الأمر تخلف، ففي قصة سيدنا يوسف عندما قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] فاختار الأبوين. الجواب: لم يتخلف هذا الأمر، فعندما قال رفع أبويه لم يتخلف وإنما هو على الخط نفسه، وذلك لما يلي:

أولاً: في قصة يوسف لم يرد ذكر لأم مطلقاً، ورد ذكر الأب، فهو الحزين وهو الذي ذهب بصره.. إلخ ولم يرد ذكر للأم أصلاً في قصة يوسف.

ثانياً: في هذا الاختيار أيضاً تكريم للأم لأنه قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فالعادة أن يكرم الابن أبويه، ليس أن يكرم الأبوان الابن، التكريم هنا حصل بالعكس من الأبوين للابن، ولذلك جاء بلفظ الأبوين لا الوالدين إكراماً للأم، فلم يقل: (ورفع والديه).

وفيها إلماح آخر أن العرش ينبغي أن يكون للرجال:

فلما قال (أبويه) هنا ففيه تكريم للأم، ويلمح أن العرش ينبغي أن يكون للرجال، ويناسب ما ذكر عن الأب؛ إذ القصة كلها مع الأب، فهو الأنسب من كل ناحية.

وهنا قد يرد سؤال: إن الأم هي التي تتأثر وتتألم أكثر وتحزن، فلماذا لم يرد ذكرها هنا؟ ألم تكن بمنزلة أبيه في اللوعة والحسرة؟

لا.. المسألة أمر آخر، أم يوسف ليست أم بقية الإخوة، هي أم يوسف وأخيه فقط، ولذلك في كون كلامها حساساً مع إخوته، أما يعقوب عليه السلام فهو أبوهم جميعاً، فإذا عاتبهم أو كلمهم فهو أبوهم، أما الأم فليست أمهم، فإذا تكلمت ففي الأمر حساسية، وهذا من حسن تقديرها للأمور، فكتمت ما في نفسها وأخفت لوعتها حتى لا تثير هذه الحساسية في نفوسهم، وهذا من حسن التقدير والأدب. فلننظر كيف يختار القرآن التعبيرات في مكانها، ويعلمنا كيف نربي ونتكلم مع أبنائنا.

في إجابة لبعض العلماء عن الفرق بين قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] هذه كلمة ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] هذه اثنتان، ثم: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ [لقمان: ١٤] بدون حسن ولا إحسان؟

لاحظ قبل كل شيء: الله ما قال وصينا المؤمنين بل وصينا الإنسان عموماً. يريد ﷻ أن يقول أن علاقة الأبناء بالآباء وعلاقة الآباء بالأبناء هي من خصائص هذا الإنسان، لا تجد هذه العلاقة بين كل الأحياء الأخرى، الحيوانات نعم هناك أمٌّ تعرف أطفالها، ولكن الأب لا يهتم من هو ابنه، والابن لا يهتم من هو أبوه، بل إن الابن لا يهتم من هي أمه، وحينئذٍ الأم فقط في المخلوقات الحية هي التي تهتم بأطفالها إلى حين.

من أجل هذا من خصائص الإنسان احترام الأبوين وتقديرهما وتقديسهما وحسن التعامل معهما، فالله تعالى وصاه بذلك، رب العالمين هو الذي غرس في هذا الإنسان من جملة عناصر أَنْسَنتِه عندما خرج من المملكة الحيوانية فوهبه الله ﷻ العلم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وحينئذٍ تأنسن الحيوان. وحينئذٍ من عناصر أنسنة هذا المخلوق هو أن يكون باراً بوالديه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي العطاء أن تطعمه وأن تسقيه وأن تقدم حاجاته، وما يحتاجه من مأكلٍ ومطعمٍ وملبس، هذا الإحسان.

وفي الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ هذا لا يكون بالعطاء وإنما بحسن التعامل، كيف تحترمه؟ أنت قد تعطي أباك، لكنك تشتمه ولا تحترمه أو تتكلم معه دون احترام، أنت أعطيته، أنت برزْتَ به، وهذا الفرق بين الحسن والبر، البِرّ أن تعطي أباك ما يحتاجه، الإحسان أن تعطيه بشكلٍ جيد، هذا الفرق بين البر والإحسان. البِرّ أن توفر له حاجاته، لكن قد تقدمها بشكل غير لائق فيها شيء من الغلظة أو الخشونة، وقد تشتم أباك وقد تزدريه من كِبَره أو تزدري أمك، لكن الإحسان أن تعطي هذين الأبوين هذا البر بشكل في غاية الدقة والأناقة والجمال من حيث إنك تكون خادماً لهما.

تقريباً وبلا مبالغة ولا مباهاة (٩٩٪) من هذه الأمة يتعاملون مع آبائهم وأمهاتهم عند العطاء بهذا الخضوع والذل ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤] هذا الذل هو من أعظم أنواع العز في الأرض. ولهذا ملوك الأرض والذين فتحوا البلدان والذين قاموا بأنواع من الحضارات والتحضّر كانوا أمام والديهم كالعبد، هذا الذل العبقري هو الذي أعْلا قيمة الإنسان العظيم العزيز، هذا هو

الإحسان، فحينئذٍ كلمة الإحسان ما يتعلق بالعطاء توفر له حاجاته لكن ليس فقط مجرد بِرّ، وإنما تقدم هذا العطاء لهما بشكل لائق يدل على احترامك لهما وعلى عدم المِنّة، أن لا تمنّ عليهما كأن تقول: أنا أعطيتك. وحينئذٍ وصاك الله بهما حسناً أي كيف تتكلم معهما؟ إذا جاء أبوك أو جاءت أمك تقوم بوجههما، وإذا تكلمت معهما تكون في غاية الخضوع يعني: انتبه إلى الحديث المتفق على صحته عن الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار؛ مسافرون ثلاثة دخلوا غاراً عندما جاءت عاصفة، فالعاصفة جاءت بحجر ثقيل فأغلقت باب الغار ولم يستطع أحدٌ منهم أن يزحزح هذا الحجر، ونفذ ما معهم من ماءٍ وطعام وأوشكوا على الهلاك، فتح الله على أحدهم وقال: تعالوا نتوسل إلى الله ﷻ بأحسن عملٍ عملناه في حياتنا، وكل واحد جاء بعمل. الثالث قال: يا ربي! أنت تعرف أن لي أماً وأباً وصارا كبيرين، وأنا عندما أعود من العمل والعمل كان بين الإبل وبين الغنم ـ يعني كان صاحب إبلٍ وغنم ـ كنت آتي لهما باللبن لكي يتعشيا لكي يناما وكنت لا أعشي أطفالي إلا بعد أن أعشي والدي ـ وطبعاً نحن نتكلم بالمعنى وليس بلغة الحديث ـ لا يعشي أولاده إلا بعد أن تشرب الأم والأب هذا اللبن ثم يناما، ثم يذهب ويوقظ أطفاله حتى يعشيهم.

يوم من الأيام جاء وقد وجد أبويه نائمين وهو يحمل لهما غبوقهما ـ يعني كأسين من اللبن ـ فلما وجد الأبوين نائمين بقي يحمل هذين القدحين إلى أن استيقظا عند الفجر وهو واقف أمام رأسيهما وأولاده جائعون ولم يعشّهم إلا بعد أن استيقظ الأبوان فقدم لهما هذا العشاء البسيط وهذا هو عشاؤهما كل يوم لا يشربان غيره، وبكل أدب سقاهما كما تسقي الأم المرضعة طفلها، ثم أيقظ أطفاله لكي يعشيهم، هذا ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

كيف تتعامل ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] ولا أفّ: هذا من الحسن وليس من الإحسان. فالإحسان هو العطاء من عشاء وغداء ولباس...إلخ. هذا من الحسن ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥] حينئذٍ كل تصرفاتك أبداً أنت عبد عندهما، وكلما ازدادت عبوديتك لهما ازدادت عبوديتك لله ﷻ وكنت عبداً صالحاً عند الله ﷻ؛ لأن رضى الله ﷻ من رضاهما، لا رضي الله عنك إلا إذا رضي عنك أبواك.

فكلما أمعنت في الخدمة والذل لهما وخفضت لهما جناح الذل، كنت أنت الرابح. إذاً هذا هو الفرق بين الإحسان والعطاء فمجرد العطاء يسمى بِرّاً، وإذا كان العطاء مع هذا الاحترام والإجلال والتقديس والتكريم فيسمى إحساناً.

إذا كنت تتحدث معه تجلس بين يديه بأدب، وعندما يقوم تقوم، وعندما تستقبله تنهض للقائه، إذا ناداك تقول له لبيك، بهذه العبودية التي جعلها الله جائزة للأبوين أنت قدمت لهما حُسناً. هذا الفرق بين ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ وهو طعام وشراب وبين ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًا﴾ وهو تعامل رقيق وأنيق في غاية الذل لهما.

الآية التي تقول ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ وسكتت: هذا يعني الاثنين، رب العالمين أجملَ هذه الحالة. وهذه الحالة بآية واحدة وقال ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ لماذا؟ قال ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤] لم يذكر فضائل الأب لأن فضائل الأب أنت تدركها وأنت كبير، أبوك يبدأ دوره معك عندما تميّز، قبل هذا أنت عند أمك شقاؤها وسهرها وتعبها وحملها أنت لا تدركه، لم تره، ولهذا ربما تذهل عن أفضال أمك عليك وأنت لا تذهل عن أفضال أبيك، ولهذا رب العالمين يقتصر على فضائل الأم على أولادها.

إذاً هكذا هو الحسن والفرق بين الحُسن والجمال أن الجمال شيءٌ متميز عن غيره من حيث قيمته الجمالية، الحُسن هو الجمال إذا كثر واشتد وتعمق حتى صار مبهجاً. إذاً الإحسان جمالٌ مبهج، أحياناً جمال عادي: هذا كأس جميل، هذا بيت جميل، لكن هناك جمال عندما تراه تقف وتقول سبحان الخلاق العظيم! ما هذا الجمال! إذا انبهرت بذلك وابتهجت نفسك به فيسمى حسناً.

من أجل هذا التاريخ ينقل لنا عن بعض الذين عاملوا أبويهم بحسنٍ مبهج. ولهذا أقصر طريقٍ إلى الجنة هو التعامل مع الوالدين بحُسنه والبِرّ، ومن رحمة الله رب العالمين قال ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨] رب العالمين تكلم عن بر الوالدين حتى لا ييئس أحد، أنت ما دمت تكفي والديك أنت بخير، لكن هذا الخير يتفاوت.

الجنة ياجماعة مئة درجة؛ كل درجة بينها وبين الأخرى كما بين السموات والأرض، وكل درجة عن درجة في النعيم كما بين الكوخ والقصر، من أجل هذا قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥]، ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٢١] إذا أردت أن تدخل الجنة فبالبِرّ، وإذا أحببت أن تترقى في الدرجات العلى التي هي منازل الأنبياء والصديقين والشهداء فعليك بالإحسان أولاً ثم تنتقل إلى الحُسن، تكون في غاية الذل وأن تقدم لهما، ثم في غاية الجمال والحسن المبهج لنفس الأبوين.

فالأبوان عندما يريانك كيف تقبل يديهما، كيف تقوم، كيف تحترمهما يشعران ببهجة. من أجل هذا أنت أعظم أنواع الإنسان يوم القيامة إذا جئت وأبواك راضيان عنك من حيث إنك بلغت القمة في التعامل معهما؛ لأنك قدمت لهما ما قدمت بحسنٍ وليس بمجرد إحسان، بل ترقيت من البِرّ إلى

الإحسان إلى الحُسن، أصبحت أنت مبهجاً لهما إلى أن ماتا بين يديك وهما في غاية البهجة، حينئذٍ لا عليك ما فعلت.

فمما ذكر النبي عليه أتم الصلاة والتسليم أن البار لوالديه يعمل ما شاء فمصيره الجنة، وكذلك العاق، فمهما كانت أعماله صالحة فمصيرها هباء منثوراً.

وهناك قمم نرجو الوصول إليها، فإن حُرمنا، فعسانا أن نصل مراتبها، كالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذه القمم يوم القيامة معدودات، عندك أصحاب الذكر، أصحاب العلم، طبعاً دعك من الأنبياء والصديقين والشهداء، فهؤلاء قضية أخرى أيضاً، السخاء، الحاكم العادل، قمم يوم القيامة من ضمنهم. إذا لم تكن أنت بمالٍ تنفق ولا بحاكم تحكم بالعدل ولا ولا... إلخ فلتكن مع أبويك مبهجاً لهما بأن تتعامل معهما بحسن.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

فكرة عامة عن الآية: (جاهداك) أي بذلا جهدهما على أن تشرك بالله، إذا بذلا جهدهما وحاولا أن تشرك بالله فلا تطعهما، ثم قال (بي) مقام توحيد لأن هنا موطن التوحيد ونفي الشك والقرآن، لا يستعمل في مثل هذا إلا مقام الإفراد. في مقام التوحيد ونفي الشرك لا يستعمل إلا ضمير المفرد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٤ ـ ١٥] في القرآن كله في كل مواطن التوحيد يذكر ضمير الإفراد، قال ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أبطل الشك من جميع نواحيه وأقسامه.

المعلومات على قسمين: إما أن يعلم الإنسان أن هذا لا يصلح أن يكون شريكاً لله، وإما أن يعلم أو لا يعلم كل ما في الوجود. فالإنسان أحد أمرين: إما

أن يعلم أن هذا يكون شريكاً أو لا يكون؛ فإن علِم أنه لا يصح أن يكون شريكاً يبقى النفي عما لا يعلم.. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تعود على الذي يريد أن يشركه بالله وهو لا يعلم.

(فلا تطعهما) الذي حصل أنه نهاه عن كل الشرك وكل أقسامه ما علِم وما لم يعلم.

إذا نفى ما ليس له به علم فالمنطق أن يكون نفى الذي له به علم؛ لأنه يعرفه ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (ما) هنا مفعول به للفعل تشرك، الذي تعرفه إشراك، الذي تعرفه أنه لا يصلح، فأنت تعرفه.

إن جاهداك على الشرك فلا تطعهما ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ الدنيا يحملها المفسرون على أمرين: إما في الحياة الدنيا لأن هذه المصاحبة ستنتهي في الدنيا وتفترقان في الآخرة، وإنما المصاحبة في أمور الدنيا لا في أمور الدين، يعني أمور الدين لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

في أمور الدين لا تطعهما، بينما في أمور الدنيا قد تطيعهما، صاحبهما في أمور الدنيا لا في أمور الدين.

ما داما على قيد الحياة فصاحبهما معروفاً إلى أن يقضي الله وتفترقا، المقصود: تصاحبهما في أمور الدنيا، ولا يعارض ذلك الدين، أما إذا الأمر تعلق بالدين فلا تطعهما، إذاً: صاحبهما في الدنيا معروفاً لها حالتان:

ـ في الدنيا كلها أو في أمور الدنيا:

حينما يتحدث الله تعالى عن العلاقة بين الأفراد والمعاشرات يقول ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] وهنا قال (معروفاً)، ولم يقل بمعروف، فلماذا؟

هذا التعبير يدل على عظيم منزلة الأبوين عند الله، يعني تصاحبهما في الدنيا مصاحبة هي المعروف بعينه، صحاباً معروفاً يعني ليست مصاحبة للمعروف.

لو قال صاحبهما بمعروف يعني أن تكون المصاحبة مع المعروف والباء للإلصاق، أو قد تكون للمعية أي مصاحبة للمعروف وليست هي المعروف كله، وإنما مصاحبة للمعروف، لما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] مصاحبة الزوج للزوجة تختلف، فأنت تستطيع أن تنهر زوجتك أو ترفع صوتك عليها أو تعضلها أو تضربها، أما مع الأبوين فلا يمكن أن يحصل شيء من هذا.

قد تصاحب المرأة بمعروف، لكن مع هذه المصاحبة بالمعروف قد تنهرها وتزجرها وتؤدبها، لكن لا يمكن أن يكون هذا مع الوالدين.

إذاً هذه معروف وليست بمعروف، صاحبهما مصاحبة هي المعروف بعينه.

(معروفاً) تُعرَب مفعولاً مطلقاً، هو في الأصل وصف للمصدر صِحاباً معروفاً، صاحب، فاعل مصدر فاعل فعال ومفاعلة مثل قاتل قتال ومقاتلة، جاهد جهاد ومجاهدة.

في سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وفي الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الآية: ١٥] ولكن هنا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

فما اللمسة البيانية في اختيار حُسناً وإحساناً؟

ذكر ربنا ﷻ في سورة لقمان قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ لم يرد مثل هذا التعبير في آيتي العنكبوت أو في الأحقاف، لم يقل وصاحبهما في الدنيا معروفاً

وإنما ورد التعبير بأسلوب وتعبير آخر، في العنكبوت قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ، وفي الأحقاف قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾، وفي لقمان قال ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ما قال لا حُسناً ولا إحساناً، ولكن ذكر المصاحبة بدل الحسن والإحسان، ذكر المصاحبة هنا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ولم يذكر المصاحبة في آيتي العنكبوت والأحقاف، وكل تعبير هو في مكانه أنسب ومناسب للسياق، قوله ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

لا شك هو أنسب مع السياق؛ لأن السياق في المصاحبات مصاحبة الأب لابنه وكيف وجهه، وكيف ينبغي أن يصاحب الابن لأبويه، وعلّمه مصاحبة الآخرين في المجتمع بأن لا يصعِّر خدّه وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. هذه كلها في المصاحبات، فالسياق في لقمان في آداب المصاحبات: الأب مع ابنه ينبغي أن يوجهه ويعلمه وأن لا يتركه، والابن مع والديه كيف ينبغي أن يتعامل، ثم الشخص مع عموم المجتمع كيف ينبغي أن يتعامل في المجتمع مع الآخرين. لم يرد مثل هذا السياق لا في الأحقاف ولا في العنكبوت، إذاً ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ هو أنسب مع سياق المصاحبة.

لماذا قال حسناً وإحساناً؟ في لقمان ذكر أن افتراض أبويه يجاهدانه على أن يشرك بالله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ إذاً افتراض أن أبويه يجاهدانه على الشرك بالله فطلب المصاحبة بالمعروف، في العنكبوت أيضاً قال ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فلماذا قال حسناً في آية العنكبوت؟ مثلما قال في لقمان ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، في العنكبوت قال أيضاً ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فما الفرق؟ المجاهدة في لقمان أشد على الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وفي العنكبوت

قال ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾ وجاهداك على أن تشرك بي أشد حملاً على المجاهدة وأقوى من (جاهداك لتشرك) (اللام للتعليل) و(على) فيها معنى الحمل والشدة.

مثال: تقول: أنفقتُ عليه لينجح وأنفقتُ عليه على أن ينجح (هذا شرط الإنفاق) وأما الأولى (لينجح) هذه لام التعليل.

زوّجتُك ابنتي لتعينني (هذه لام التعليل) وزوّجتك ابنتي على أن تعينني (هذا شرط) فيه اشتراط، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ [القصص: ٢٧]

هذا شرط وفيه اشتراط، فإذاً (على أن تشرك بي) المجاهدة فيها أشد من (لتشرك بي).

مع الشدة الأقل قال ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ ومع الشدة الأكثر قال ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، وفي العنكبوت لم يقل (صاحبهما في الدنيا معروفاً)، بل ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ هذا مع الجهاد الشديد ولم يقل حسناً. السياق في المصاحبات قال ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، وفي العنكبوت ليس السياق في المصاحبات، فقط الوصية والمجاهدة أقل ولهذا حدد الوصية بـ (حسناً)، وفي لقمان قال (بوالديه) هذا معناه العموم والإطلاق.

فلما كان في العنكبوت الجهاد أقل قال (حُسناً) لكن لم يذكر المصاحبة بالمعروف، وفي الجهاد الأشد قال (بوالديه) لم يذكر حُسناً وإنما ذكر المصاحبة بالمعروف في سورة لقمان.

في لقمان ما ذكر حُسناً ولا إحساناً، ولكن ذكر المصاحبة بالمعروف مع الجهاد بشدة، ومع الجهاد الأقل في العنكبوت قال (حُسناً) ولم يذكر المصاحبة لأن السياق في العنكبوت في الحسن من الأعمال. في العنكبوت قال ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ ، وفي الأحقاف قال: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ حتى التعبير

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ كيف قال ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ولم يقل (بمعروف) لأنه أراد أن المصاحبة هي المعروف بعينه، وهنا لما قال ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ يعني الوصية هي الحُسن بعينه لم يقل (بالحُسن) ولم يقل (وصيناه بشيء حسن) وإنما جاء بالمصدر ﴿حُسْنًا﴾.

الإتيان بالمصدر له دلالة بيانية أن الوصف أو الإتيان أو الإخبار أو الحال بالمصدر يدل على المبالغة، لذلك ليست عندهم قياس. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] كذب مصدر أي هو الكذب بعينه. ومحتمل في غير القرآن أن يقال بدم كاذب أو بالكذب، كما يقال: هذا رجل زور، وهذا رجل صوم، وهذا رجل عدل. تقول: هذا رجل صائم، أي: قد يكون صام يوماً، أما لو قلنا: هذا رجل صوم، لا تقال إلا إذا كان الصوم عادة طاغية ظاهرة عنده، وهذا يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث لفظاً واحداً؛ لأنه مصدر، يقال: رجال صوم ونساء صوم ورجل صوم وامرأة صوم. قيل: (ووصفوا بمصدرٍ كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير)، هذا من المبالغة يعني المعاملة في الوصية هي الحُسن بعينه ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ليس فيها حُسن وليست حسنة جيدة وإنما هي الحُسن بعينه.

يبقى السؤال: لماذا قال (حسناً وإحساناً) وكلاهما مصدر؟

يجوز للكلمة أن يكون لها أكثر من مصدر: (حُسناً) مصدر حَسُن من الفعل الثلاثي، و(إحساناً) مصدر أحسن، أفعل إفعال هذا قياس مثل أكرم إكرام، أعظم إعظام، أجبر إجبار، أكره إكراه، هذان مصدران مختلفان لفعلين مختلفين.

حسُن: فعل لازم، حسُن الشيء في نفسه حسناً، إحسان أن يتعدى خيره للآخرين، أحسنت إليه إحساناً ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] فرق بين

أحسنتُ إليه، وبين عاملتُه حُسناً، عاملته حُسناً أي المعاملة أو اللقاء كان حسناً لكن لم تفعل له شيئاً، أما الإحسان فيتعدى خيره للآخرين: أحسنت إليه أي قدمت له معروفاً، قدمت له خيراً.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أي عاملهما حسناً، أما إحساناً فأن تقدم لهما الخير. إذاً إحساناً أقوى من حُسناً.

يبقى سؤال: لماذا استعمل كل واحدة في مكانها؟ في آية العنكبوت ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وهذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

نلاحظ في هذه الآية ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ولم يقل هذا في العنكبوت، ولم يقل هذا في لقمان ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ وإنما ذكر الحمل دون الوضع، أما هنا فذكر الحمل والوضع.

وكلاهما كُره فأيهما أشدّ على المرأة؟ قد تحمل شيئاً كرهاً وتضعه بيُسر، إذاً ذكر في الأحقاف أمرين: الحمل والوضع، وكلاهما كره ومشقة.

هذا فيه مشقة في الحمل والوضع، ولم يذكر الحمل أصلاً في العنكبوت، وفي لقمان ذكر الحمل ولم يذكر الوضع وقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ لم يذكر آلام الوضع ولا مشقة الوضع، لكن ذكر جزءاً من آلام الحمل.

في لقمان ذكر الحمل وحده وقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾، في الأحقاف ذكر الحمل والوضع وكلاهما كُره، وفي العنكبوت لم يذكر الحمل والوضع، إذاً أيهما يستحق الإحسان؟ في الأحقاف الوالدان مؤمنان ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ وبعدها قال: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ

أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وفي العنكبوت ولقمان الوالدان كافران: في لقمان ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ بينما في الأحقاف لم يذكر هذا، وإنما ذكر آلام الحمل وآلام الوضع وأن الأبوين مؤمنان فمن الذي يستحق الإحسان؟ المؤمن يستحق الإحسان.

هل يصح في البلاغة أن نضع الإحسان في آية العنكبوت والحُسن في آية الأحقاف؟ لا يمكن.

هذا إضافة إلى أن ذكر الحُسن في سياق آية العنكبوت أنسب من الإحسان. في العنكبوت قال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [العنكبوت: ٧ ـ ٨] حتى يتناسب مع الجزاء، هذا في سياق الحسن من الأعمال. في الأحقاف قال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] هنا أيضاً في سياق الحسن من الأعمال. فإذاً العنكبوت والأحقاف السياق في الحُسن من الأعمال، فذكر حسناً وإحساناً، وفي لقمان السياق في المصاحبة بين الناس والمعاشرة بين الناس فذكر المصاحبة بالمعروف. إذاً سواء كان من ناحية السياق أو من ناحية واقع الوالدين كل تعبير هو أنسب في مكانه: الحُسن في العنكبوت والإحسان في الأحقاف والمصاحبة بالمعروف في لقمان.

سؤال: الرجل العادي الذي ليس له علم بالعربية والبيان والبلاغة كيف له أن يفهم هذا؟

هو ليس مكلفاً بأن يفهم بهذا الشكل، لكن المهم أن يقرأ، وإذا كان الشخص يتعلّم فينبغي أن يُبيَّن له ما يجهله هنا، كأناس يتكلمون بما لا يعلمون فيُبيَّن لهم حتى تقوم الحجة عليهم.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] لا سبيلهما، صاحبهما في أمور الدنيا وليس في أمور الآخرة، ولا تتّبع سبيلهما، وإنما اتبع سبيل المنيبين إلى الله في الطاعة والعبادة والمعاملة في إقامة شرع الله في ما أنت مكلف به، واتّبع سبيل المنيبين إلى الله لا سبيلهما لأنهما مشركان، لكن ينبغي المصاحبة بالمعروف.

برغم أنه ذكر المصاحبة بالمعروف والوصية بالوالدين إلا أنه يقول ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ لأن الله ﷻ خلق الجن والإنس للعبادة والطاعة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فكيف تتبع سبيلهما وهما قد عصيا؟ تصاحبهما في الدنيا معروفاً في أمور الدنيا، وقيل: المصاحبة إما في أمور الدنيا أو في الدنيا، ثم تنقطع المصاحبة وكل واحد يذهب في سبيله.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [لقمان: ١٥] إليّ حصراً لا ترجعون إلى جهة أخرى ولا إلى ذات أخرى، وفي هذا إبطال للشرك، لا يرجعون إلا إليه حصراً، فلماذا الشرك وما يفعل الشركاء؟ ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مثل ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تقديم الجار والمجرور والمبتدأ معرفة، وهنا ابتدأ بالخبر، ويجوز التقديم.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥] أي أخبركم، ولم يقل فأجزيكم مثلاً؛ لأن ربنا قد ينبئ الإنسان بما عمل ثم يغفر له في الآخرة، بعد أن يستر عليه، قد ينبئ الإنسان بما عمل ثم يجزيه خيراً منه.

لم يذكر الجزاء هنا وإنما ذكر الأخبار، قد يكون العبد أحصاها وقد يكون نسيها ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] ربنا ينبئه بما

كان يعمل من خير أو شر. المؤمن قد يفعل معصية ولماً فينبئه بما عمل ثم يغفر له، والحسنة يجزيه بخير منها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] أو بعشر أمثالها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] إذاً هو ينبئ، ما ذكَر الجزاءَ، ما قال (يجزى به) وإنما قال ﴿يَرَهُۥ﴾ ، هذا حكم عام أن يرى الرجل عمله ليس الجزاء، فإن كان مؤمناً يجزيه الله تعالى خيراً مما رأى أو يغفر له ويقول له: «يدنو أحدُكم من ربه حتى يضعَ كنَفه عليه، فيقول: أعمِلتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: أعمِلتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيُقرِّرُه، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليومَ»[1] فيسترها عليه في الآخرة كما سترها عليه في الدنيا.

في السورة نفسها في مكان آخر لم يكتف بالتنبيه وإنما ذكر الجزاء مع الكافرين ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [الأنعام: ٢٣ ـ ٢٤] لم يكتف بالتنبؤ لأن هؤلاء كفروا، ينبئهم ثم يجزيهم بما عملوا. هناك لم يذكر الكفر وإنما كان حكماً عاماً.

(١) صحيح البخاري: ٧٥١٤.

الخاتمة

وقد تمت كتابة هذا الكتاب من المقدمة إلى الباب الثامن المذكور تحت عنوان: **(أسس التربية الإسلامية في سورة لقمان)** من خلال سورة لقمان، وسنقدم الخلاصات من تلك الأبواب كما يلي:

١ ـ سورة لقمان سورة كريمة تدخُلُ بنا إلى عُمْق حركة الفعل والعقيدة لفئة من الناس، هذه الفئة هم تجَّار، وتجارتُهم تقوم لبذل الغالي والنفيس من أجل توفير الثمن المطلوب للحصول على لهو الحديث؛ الذي هو كلُّ انشغال، واستمتاع بشيءٍ ما غير الحقِّ، وعادةً ما يحاكي شهواتِ الإنسان ورغباته؛ وذلك ليحققوا وينالوا التخلُّص من الحق وصوتِه فيهم؛ فبذلك هم يجعلون صوتَ القيم والأخلاق والفضيلة والحقيقة فيه مصوتاً مظلولاً لا يُرى، ولا يظهر، مخفيّاً غير مسموع فيهم!

إذاً هو سَعْيٌ وفعلٌ كان سببُه ودافعه عقيدةً سارت إليها هذه الفئة من الناس، وهي الكفر بالحق ورفضُه، وطمسُه فيهم؛ فكان نيل اللهو من الحديث وشراؤه غايةً وهدفاً منشوداً على الدوام بالنسبة لهم؛ حتى يغطوا، ويخفوا ويتخلَّصوا من صوت الحقِّ، والمنطق، والاعتدال، والفطرة السليمة في السلوك والفعل والعمل لديهم، بل إنهم يعتبرون أن لَهْوَ الحديثِ بما فيه من دلائل واضحةٍ وجليَّة تقيمُ الحجَّة على الحق والمنطق، من حيث إن المتعةَ بأي صنفٍ من صنوف اللهو قد تُجلِّي حقيقةً لا مفرَّ منها، وهي صوت الحقيقة، والواقع، والعبرة؛ فتلك الجزئية لم تعُدْ تعنيهم، أو تثيرهم نهائياً؛ لأنهم اعتبروا واعتقدوا اعتقاداً راسخاً أن لَهْوَ الحديث هو هُزُوٌ؛ بمعنى أنه أمر للتسلية والانشغال، خالٍ من الرد والإشارة إلى

صوت الحقِّ والمنطقِ؛ الذي يجعل الإنسان يتنبَّهُ ويُفيق إلى حالته ووضعيَّته فيعود عن طريق اللَّهو والانشغال والكفر إلى الحق.

إذاً هي فئة عقيدتُها كانت يُغيَّب صوتُ الحق فيها، فكان عملها وسعيها لهواً وانشغالاً ومتعاً وشهوات دون أدنى تبصُّر وانتباه إلى صوت المنطق والحق، وضرورة العود والتوبة والرجوع.

حالة ووضعيَّة وعقيدة، وفعل، وعمل كان سبباً واضحاً في تميُّز هذه الفئة من الناس بالألم والمعاناة، والعذاب المهين المتمثِّل في تساؤلهم وحيرتهم: لماذا نحن على هذا المنهج والسلوك؛ منهجِ وسلوك المتعةِ والشهوات واللَّهو الانشغال؟

٢ ـ إن الدعوة هي أن تحث الناس ليفعلوا الخيرات وتهديهم وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؛ لكي ينالوا سعادة في الدنيا والآخرة، وإن حامل الدعوة يتّسم بصفات الأنبياء والمرسلين والمؤمنين المفلحين فهو خير الأمة.

وأما شروط الدعوة، فلا بدّ للداعي أن يتسلّح بالعلم والإيمان والإخلاص فيكون من المفلحين.

٣ ـ القواعد الدعوية التربوية مستمدة من سورة لقمان، وهي كما يأتي:

أ ـ قيام الدعوة بالعلم من الحجة والبرهان.

ب ـ مراعاة أولويات الدعوة.

ج ـ الترغيب في الصحبة الطيبة والتحذير من الصحبة السيئة.

د ـ بيان أدب الدعاة إلى الله.

هـ ـ استعمال العقل والبعد عن التقليد الأعمى.

و ـ الدعوة بالتنذير والتبشير.

ز ـ الدعوة بالتحذير من فتنة الدنيا والشيطان.

وأخيراً.. نقدم بعض الاقتراحات سعياً وراء تربية إسلامية قويمة كي تستقيم حياتنا وحياة أجيالنا في المستقبل القريب والبعيد معاً، وهي كما يلي:

١ ـ ينبغي لكل إنسان أن يتعلم أصول التربية الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم، وبالخصوص فيما يتعلق بالتربية عن طريق النصيحة أو الموعظة.

٢ ـ ينبغي لكل مربٍّ أن يتعلم من خلال آيات القرآن وسوره التربية بالقصص لكي ينال الحجة والبرهان القوي.

٣ ـ ينبغي لكل مسلم أن يكون آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر؛ فهذا واجب أي مسلم.

المراجع

القرآن الكريم.

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي.

٢ ـ أساسيات علم النفس التربوي، أ.د. محيي الدين توفيق، أ.د. يوسف قطامي، أ.د. عبد الرحمن عدس، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.

٣ ـ أسباب النزول للسيوطي.

٤ ـ أسس التربية الإسلامية، الدكتورأحمد مصطفى متولي.

٥ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبد الرحمن النحلاوي.

٦ ـ أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، د. محمد حسن العمايرة، ٢٠١٠م.

٧ ـ تربية الأبناء في الزمن الصعب، عبد الرزاق كيلو، دار المنارة، ١٩٩٨م.

٨ ـ التربية الإسلامية ـ تربية الأولاد في الإسلام، د. راتب النابلسي.

٩ ـ التربية والمجتمع، إيميل دوركهايم، ترجمة علي أسعد وطفة، ٢٠١٧م.

١٠ ـ تفسير الإمام، البيضاوي.

١١ ـ تفسير البحر المحيط، لابن حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون.

١٢ ـ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣ ـ تفسير الكشاف للزمخشري.

١٤ ـ تفسير اللباب لابن عادل.
١٥ ـ تفسير المراغي.
١٦ ـ جامع البيان عن تأويل آي القران للطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ٢٠٠١م.
١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
١٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي.
١٩ ـ الرقائق لابن القيم.
٢٠ ـ الفكر التربوي الإسلامي، الدكتور بدر حمد المحيلبي، الصادر عن مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.
٢١ ـ الفوائد لابن القيم.
٢٢ ـ الفوائد لابن القيم.
٢٣ ـ كتب الصحاح الستة.
٢٤ ـ كل ما تريد معرفته عن طفل ما قبل المدرسة، الدكتور محمد سعيد مرسي.
٢٥ ـ لسان العرب لابن منظور.
٢٦ ـ مدارج السالكين لابن القيم.
٢٧ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
٢٨ ـ المفردات في غريب القرآن.
٢٩ ـ من أجل أطفالنا، عدنان السبيعي، الطبعة الثالثة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٠ ـ موسوعة روائع الشعر العربي، محمد عبد الرحيم.
٣١ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي.

مواقع ودوريات

١ ـ موقع مجلة طفلي.
٢ ـ مجلة البيان، العدد ٣٠٢، شوال ١٤٣٣هـ، أغسطس ٢٠١٢م.

المحتويات

استهلال..... ٥

مقدمة..... ٧

ما أسس تربية الأبناء من خلال سورة لقمان؟..... ٨

الفصل الأول..... ١١

الباب الأول..... ١٣

أولاً: تعريف عام بسورة لقمان..... ١٣

ثانياً: لقمان الحكيم..... ١٤

ثالثاً: لقمان الحكيم، نبياً أم حكيماً..... ١٥

رابعاً: حكمة لقمان..... ١٦

ومن حكم لقمان..... ١٧

الباب الثاني..... ١٩

وصايا لقمان لابنه الواردة في سورة لقمان..... ١٩

الوصية الأولى..... ٢١

الوصية الثانية..... ٢٢
الوصية الثالثة..... ٢٤
الوصية الرابعة..... ٢٥
الوصية الخامسة..... ٢٦
الوصية السادسة..... ٢٧
الوصية السابعة..... ٢٨
الوصية الثامنة..... ٢٩
الوصية الأخيرة..... ٣٠
الفصل الثاني..... ٣١
الباب الأول..... ٣٣
مقاصد سورة لقمان..... ٣٣
الباب الثاني..... ٣٥
أغراض سورة لقمان..... ٣٥
الفصل الثالث..... ٣٧
الباب الأول..... ٣٩
المناسبات في سورة لقمان..... ٣٩

أولاً: مناسبة فاتحة السورة وما قبلها..... ٣٩

ثانياً: مناسبة خواتيم السورة وما بعدها..... ٤٠

ثالثاً: مناسبة اسم السورة مع محتواها..... ٤٠

رابعاً: مناسبة آيات لقمان مع ما قبلها..... ٤٠

خامساً: مناسبة آيات لقمان مع ما بعدها..... ٤١

الباب الثاني..... ٤٣

محور سورة لقمان..... ٤٣

الفصل الرابع..... ٤٩

الباب الأول..... ٥١

الموضوعات التي تضمنتها سورة لقمان..... ٥١

أولاً: خصائص القرآن..... ٥١

ثانياً: أوصاف المؤمنين..... ٥١

ثالثاً: إعراض الكافرين عن القرآن، وإقبال المؤمنين عليه..... ٥١

رابعاً: الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية الله..... ٥٢

خامساً: قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه..... ٥٢

سادساً: توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد ٥٢

سابعاً: سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر.....٥٢

ثامناً: إثبات وجود الله وسعة علمه..... ٥٣

تاسعاً: الأمر بتقوى الله وبيان مفاتيح الغيب..... ٥٣

الباب الثاني.....٥٥

التربية وأهدافها في الفكر التربوي الإسلامي.....٥٥

أولاً: التربية لغةً واصطلاحاً.....٥٥

ثانياً: أهداف التربية في الفكر الإسلامي..... ٥٦

وتهدف التربية الإيمانية إلى أربعة أمور..... ٥٨

محاور مساهمات الفكر التربوي..... ٦٤

مصادر المعرفة في التصور الإسلامي..... ٦٥

ثالثاً: الهدف العام للتربية الإسلامية.....٧٠

رابعاً: الأهداف الفرعية للتربية الإسلامية.....٧١

خامساً: مصادر اشتقاق الأهداف في التربية الإسلامية.....٧٣

الفصل الخامس.....٧٥

الباب الأول..... ٧٧
الأساليب التربوية في القرآن ومكانة سورة لقمان منها..... ٧٧
أولاً: تعريف القرآن الكريم..... ٧٧
ثانياً: الأساليب التربوية في القرآن..... ٧٨
الأساليب التربوية في القرآن الكريم..... ٧٨
ثالثاً: مكانة سورة لقمان من أساليب التربية في القرآن..... ٨٥
أساليب الأمر في سورة لقمان..... ٨٥
دلالات استخدام أسلوب الأمر في الآيات الكريمة السابقة ٨٦
الباب الثاني..... ٨٩
أساليب التربية في سورة لقمان..... ٨٩
أولاً: محاور تربية لقمان..... ٩٠
ثانياً: التربية بالموعظة أسلوبُ لقمان الحكيم..... ٩٣
فقدان الموعظة مدلولها القرآني في عصر النفاق والازدواجية..... ٩٤
أمة محمد عليه الصلاة والسلام تقسم إلى قسمين..... ٩٨
ـ أسلوب النداء الإقناعي أو التحذيري..... ١٠٠

ـ أسلوب النداء يسهل دخول الموعظة إلى النفس..... ١٠٠

في القرآن نداء للأقوام إما فردي وإما جماعي..... ١٠١

ـ أسلوب الموعظة هو الأسلوب القصصي..... ١٠٢

القصة أفضل أسلوب في التأثير، وأفعل أسلوب في الإفساد..... ١٠٣

الله تعالى قصّ على سيد الخلق قصة نبي دونه ليزداد قلبه ثبوتاً..... ١٠٣

قصة تروي عدل الله ﷻ..... ١٠٤

قصص تبين أن بطش الله شديد..... ١٠٤

أسلوب الوصايا..... ١٠٥

اعتماد التنوع بين مخاطبة القلب والعقل أو الجمع بينهما..... ١٠٦

الفصل السادس..... ١٠٧

الباب الأول..... ١٠٩

الانفتاح المعاصر وأثره على التربية في المجتمعات الإسلامية..... ١٠٩

أولاً: ما المقصود بالانفتاح؟..... ١١٥

ثانياً: وسائل الانفتاح..... ١١٦

ثالثاً: آثار الانفتاح في الأبناء..... ١١٦

ـ الآثار الخارجية..... ١١٦

ـ آثار المضمون الذي يُقدم من خلال هذه الوسائل..... ١١٩

ـ وهناك آثار اجتماعية أخرى..... ١٢٠

رابعاً: ما المقصود بالتربية المعاصرة؟..... ١٢١

خامساً: أهمية التربية في عصر الانفتاح..... ١٢٢

ـ أهمية التربية في النصوص الشرعية..... ١٢٢

سادساً: عناصر التربية في ظل الانفتاح..... ١٢٣

طبقات المتربين..... ١٢٥

سابعاً: تحديات التربية المعاصرة..... ١٢٦

أ ـ التحديات من جهة البيئة..... ١٢٦

ب ـ التحديات من جهة المربين..... ١٢٧

ثامناً: صعوبة مهمة التربية..... ١٢٧

تاسعاً: طرق وقاية الأبناء من آثار الانفتاح..... ١٣٠

عاشراً: الوسائل الكفيلة بتربية صحيحة..... ١٣٩

ـ التربية ثم التربية ثم التربية..... ١٤٢

الباب الثاني..... ١٤٥

وصايا لقمان ومكانتها في التربية المعاصرة..... ١٤٥

الفصل السابع..... ١٥٧

الباب الأول..... ١٥٩

الفوائد التربوية المستفادة من سورة لقمان..... ١٥٩

الباب الثاني..... ١٧٧

نظرات بيانية في وصية لقمان لابنه..... ١٧٧

لم يقل (بأبويه) بل اختار (بوالديه)..... ١٨٨

أمثلة..... ١٨٩

فكرة عامة عن الآية..... ١٩٦

الخاتمة..... ٢٠٧

المراجع..... ٢١١

المحتويات..... ٢١٥